



الجزء الأول

تأليف
دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع


السيرة النبوية
الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢

الترقيم الدولي

977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

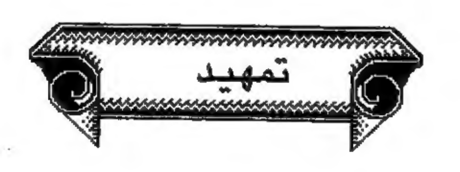
دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع

حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري

ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم



تمهيد

الحمد لله الذي أوجد البشر في هذه الحياة الدنيا ولم يتركهم سدى ، بل بين لهم سبيله الهادي إلى سعادة الدنيا والآخرة ، فأرسل لهم رسلاً مبشرين ومنذرين ، وجعلهم قدوة لأممهم ، ينفذون شريعة الله تعالى في الأرض ، ويرفعون معالم الحياة الكاملة التي تجمع بين سعادة الدارين .

وصلى الله تعالى على سيدنا ونبينا محمد الذي أدى الأمانة وبلغ الرسالة وأقام التوحيد وهدم الشرك ، وجاهد في الله حق جهاده ، وبنى دولة الإسلام ، وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فإن التاريخ الإسلامي مادة مهمة في مجال العقيدة والأحكام والدعوة والجهاد والأخلاق وغيرها حيث إنه سجل حافل من مآثر سلفنا الصالح ، فهو عبارة عن قوالب تختزن فيها وقائع تشتمل على نماذج حية من تطبيق الإسلام على هذه الأرض .

فالنصوص المجردة قد تتلقاها بعض النفوس بشيء من البرود وعدم التأثر ، ولكن حينما تُروى ضمن وقائع حدثت فعلاً من رجال سموا إلى

المعالي ، وتخلصوا من ضغط الجاهلية ، وجردوا أنفسهم لما يحبه الله تعالى منهم ، وأصبحوا يمثلون الإسلام الواقعي المطبق في الحياة وليس الإسلام المسطر في الكتب فحسب . . . حينما تُروى على هذا النحو الحي المتحرك فإنها تهز الضمائر الحية وتدفع النفوس الأبية إلى التأثر ومحاولة التأسي بأولئك الأماجد الكرام .

لذلك اتجهت همة العلماء رحمهم الله تعالى إلى جمع سيرة رسول الله ﷺ وسير الصحابة رضي الله عنهم والمصلحين من بعدهم ، واستفاد منها المربون عبر الأجيال في إصلاح النشىء وتقويم السلوك .

ولما كان كل عصر له ملامحه الخاصة ، من حيث تَغَيُّر أنماط الحياة الاجتماعية واختلاف موارد الثقافة ، وتعدد المناهج السياسية والاقتصادية ، وتنوع وسائل الغزو الفكري من الأعداء كان لا بد من إعادة دراسة سيرة السلف الصالح ، ومحاولة الاستهداء بها في تقويم حياة المسلمين على ضوء الحياة المعاصرة .

وإذا كانت الأمم الغربية تفتخر بقوتها المادية وتقدمها الصناعي فإن لنا ماضياً مجيداً بلغت فيه الأمة الإسلامية من الرقي الأخلاقي والمادي ما لم تبلغه أمة من الأمم .

وإننا حينما نحيي مآثرنا ونردد مفاخر ماضينا فليس ذلك لمجرد استجلاب النشوة بتذكر أيام عزنا ومجدنا ، وليس ذلك لمجرد الاستعلاء على الآخرين ، أو تعزية النفوس عن النقص الحاضر بترديد مفاخر الكمال في الماضي ، وإنما ليكون ذلك دافعاً إلى انبعاث الحياة في النفوس

لتعود هذه الأمة إلى رقيها الأخلاقي الكامل ، ولتأخذ بأسباب التقدم المادي المناسب لعصرها حتى تكون كسلفها الصالح أقوى وأكبر أمة في هذه المعمورة .

والموضوعات التي سأقدمها للقراء الكرام في هذا الكتاب إنما هي قبسات من أمجاد سلفنا الصالح ، وومضات من تاريخهم الزاهر في مجال العقيدة والدعوة والجهاد ومكارم الأخلاق ، ابتداء بذكر مآثر رسول الله ﷺ والمشاهير من صحابته رضي الله عنهم ، وسيراً مع أمجاد المصلحين من هذه الأمة العظيمة ، التي أحدثت في تاريخ البشرية ذكراً خالداً مع الزمن .

هذا وقد اخترت هذه الموضوعات بعدما طوفت في عدد من كتب السير والتراجم ، وجمعت الكثير من مآثر السلف ومناقبهم واطلعت على واقعهم الذهبي في تطبيق الإسلام الكامل في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين ، وما نتج عن ذلك من مظاهر الحياة الكاملة التي تتسم بالقوة من غير عنف وباللين من غير ضعف ، وبالعزة على الكافرين وبالذلة والتواضع للمؤمنين وبالعدل في الحكم حتى مع الكافرين ، وباعتبار الكفاءة بقوة الإيمان والعمل الصالح والخبرة ، وباستبعاد المؤهلات التي تتنافى مع الإسلام كالأنساب والأوطان والمجد الدنيوي .

وآمل أن أكون في تقديم هذا الجهد المتواضع قد أسهمت في أداء بعض ما لسلفنا الصالح من حق على أحفادهم الذين ورثوا عنهم هذا المجد العريض والعز المنيع ، وفي تذكير أبناء الأمة الإسلامية بما بلغته هذه الأمة في ماضيها من قوة ورقي أخلاقي .

وقد جمعت مادة هذه الموضوعات في العقد الأخير من القرن الماضي حينما مررت على أكثر كتب السنة والسيرة المطبوعة وظلت هذه المادة حبيسة الأوراق حتى أتيحت لي فرصة البدء في إعدادها في عام سبعة وأربعمائة وألف .

وكان من طريقتي في إعدادها والكتابة عنها أنني أجمع مادة الموضوع الذي أريد الكتابة عنه من جميع الكتب التي تتيسر لي ، ثم أختار الروايات الجامعة وأشير إلى بقية الروايات غالباً ، وإذا كان النص يشتمل على بعض الأعلام فإنني أرجع إلى كتب التراجم حيث أحصل منها على فوائد في خدمة النص ، وخاصة ما يتعلق بحكم العلماء على تلك النصوص ، وكذلك فيما إذا كانت تشتمل على آيات من القرآن الكريم فإنني أرجع غالباً إلى كتب التفسير بالمأثور حيث يورد أصحابها أحياناً تلك النصوص .

هذا وقد عرضت هذا الجزء وخاصة المقدمة على علماء فضلاء لهم تفوق وبروز في علوم الكتاب والسنة ، وهم أصحاب الفضيلة : الأستاذ الدكتور أحمد بن محمد نور سيف ، والدكتور منصور بن عون العبدلي ، والدكتور عبد المهيمن بن عبد السلام الطحان ، والدكتور محمد بن سعيد بخاري ، والدكتور وصى الله بن محمد عباس ، وقد استفدت من ملاحظاتهم القيمة ، وإننى من باب الاعتراف بالجميل والثناء على أهل الفضل أشكرهم على ما بذلوا من وقت وجهد في هذا المجال ، جزاهم الله خيراً ونفع بعلمهم المسلمين .

المقدمة

نبذة عن المنهج الأمثل في اعتماد الأخبار :

حينما يتصدى أي كاتب للكتابة عن مضمون النصوص الحديثية والتاريخية فإنه بحاجة أولاً إلى أن يتثبت من صحة نسبة الوقائع والأقوال إلى أصحابها وسلامتها من الكذب أو الخطأ ، ثم يتحدث عنها بعد ذلك بما يتناسب مع موضوعاتها .

وقد سرت في البداية على طريقة دراسة الأسانيد والحكم من خلال ذلك على الأحاديث ، وهذه هي الطريقة السائدة في هذا العصر ، ولكن من خلال عملي في هذا الموضوع وبحوث أخرى ، ومن خلال إشرافي على رسائل علمية ومناقشتي رسائل أخرى تشتمل على دراسة الأسانيد تبين لي أن هذا العمل كبير جداً ، ولا يليق بي ولا بأمثالي اقتحام هذا الأمر وكلما تعمقت في هذا الموضوع تبين لي أنه من اختصاص العلماء الكبار الذين تعمقوا وتوسعوا في هذا العلم ، حيث إن الحكم على الأحاديث يحتاج مع دراسة الأسانيد إلى إحاطة بالأحاديث المروية في موضوع ذلك الحديث إذا كان في سنده مقال حتى لا يحكم الباحث عليه بالرد مع وجود شواهد له ترفعه إلى القبول .

كما يحتاج الباحث إلى إحاطة بمرويات الرواة الذين جمع العلماء

في الحكم عليهم بين الجرح والتعديل مثل الحكم على الراوي بأنه صدوق يخطئ أو يهم أو ثقة له أوهام ونحو ذلك ، لأن الحكم على أحاديث هؤلاء جميعاً بالقبول يتضمن قبول أحاديث أخطئوا فيها أو وهموا فيها ، والحكم عليها جميعاً بالرد يتضمن الحكم بذلك على أحاديث أصابوا فيها .

والذي سار عليه المحققون من العلماء هو دراسة مرويات هؤلاء الرواة واختيار ما لم يخطئوا فيه وترك ما أخطئوا فيه .

وفي بيان هذا المنهج يقول الإمام ابن القيم بعدما ذكر ما عيب على الإمام مسلم في إخراجه حديث مطر الوراق : « ولا عيب على مسلم في إخراج حديثه لأنه ينتقي من أحاديث هذا الضرب ما يعلم أنه حفظه ، كما يطرح من أحاديث الثقة ما يعلم أنه غلط فيه » ثم خطّأ من أخرج جميع حديث الثقة وإن كان فيه غلط ، وذكر أن هذه طريقة الحاكم وأمثاله ، كما خطّأ من ضعف جميع حديث سيء الحفظ ، وذكر أن هذه طريقة ابن حزم وأمثاله ، وصوب طريقة الإمام مسلم وذكر أنها طريقة أئمة هذا الشأن [1] .

أما الباحثون في هذا العصر فمنهم من يسير على منهج ابن حزم في رد أحاديث من اتهموا بالوهم أو الخطأ أو سوء الحفظ ، وفي ذلك ضياع لثروة علمية كبيرة .

وهذه الاستدراكات التي يطلقها العلماء النقاد بقولهم يخطيء أو

---

(١) زاد المعاد ، فصل في هديه صلى الله عليه وسلم في سجود القرآن (١/ ٣٦٤) .

يهم أو له أوهام لا يعنون بها جرح الراوي ليرد حديثه ، وإنما يصفونه بذلك من باب الاحتياط للدين ليتوقف العلماء الباحثون عند هذه الإشارات فيبحثوا بعد ذلك في مرويات هؤلاء الرواة فيتقوا رواية ما انتقدوا فيه .

وهؤلاء العلماء الذين يؤلفون الكتب في الجرح والتعديل إنما يؤلفونها للعلماء المتأهلين للحكم على الأحاديث من باب التنبيه إلى مواقع الخلل إجمالاً ليقوم العلماء الباحثون بتكميل مراحل البحث في الحكم على النصوص من خلال ذلك ، لا ليحكموا على الرواة ثم على الأحاديث على ضوء تلك الكلمات الموجزة التي أطلقها أولئك العلماء النقاد .

ومن الباحثين من يتساهل فيقبل أحاديث من اتهموا بالوهم والخطأ مطلقاً من غير بحث ولا نظر في مرويات الرواةولا في روايات الرواة الآخرين في الموضوع نفسه ، وهذا تفريط كبير ، فإن هؤلاء الرواة لم يتهموا بالخطأ أو الوهم أو الغلط إلا وفي مروياتهم شيء من ذلك .

وقل من يسير على منهج المحققين من أهل هذا الشأن لأن هذا المنهج يحتاج إلى علم واسع ، وتفرغ طويل لهذا العلم ، ولا ينجح في ذلك إلا العلماء الأفذاذ الموهوبون الذين يدركون الخطأ في الأسانيد بمجرد سماعها لسعة اطلاعهم ، ولما منحهم الله تعالى من الحافظة القوية والذكاء النادر ، ولهذا لم يشتهر بالنقد من العلماء الذين أمضوا أعمارهم في هذا الفن إلا نوادر في كل عصر مع أن كثيراً من الرواة قد جعلوا هذا العلم شغلهم الشاغل ، ووصلوا فيه إلى حفظ الأسانيد والمتون .

ومن الأمثلة الجيدة للنقد الصحيح الصادر من هؤلاء العلماء ما ذكر الإمام الذهبي من خبر عباس الدوري : حدثنا يحيى بن معين ، قال : حضرت نعيم بن حماد بمصر ، فجعل يقرأ كتاباً صنفه ، فقال : حدثنا ابن المبارك عن ابن عون ، وذكر أحاديث ، فقلت : ليس ذا عن ابن المبارك ، فغضب ، وقال : ترد علي ؟ قلت : إي والله ، أريد زينك ، فأبى أن يرجع ، فلما رأيته لا يرجع . قلت : لا والله ما سمعت هذه من ابن المبارك ولا سمعها هو من ابن عون قط . فغضب وغضب من كان عنده وقام فدخل ، فأخرج صحائف ، فجعل يقول ، وهي بيده : أين الذين يزعمون أن يحي بن معين ليس بأمير المؤمنين في الحديث ؟ نعم يا أبا زكريا : غلطت وإنما روى هذه الأحاديث غير ابن المبارك عن ابن عون[1] .

ومن ذلك ما رواه الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم قال : سمعت أبي رحمه الله يقول : جاءني رجل من جلة أصحاب الرأي من أهل الفهم منهم[2] ومعه دفتر فعرضه عليَّ فقلت في بعضها : هذا حديث خطأ قد دخل لصاحبه حديث في حديث ، وقلت في بعضه : هذا حديث باطل ، وقلت في بعضه : هذا حديث منكر ، وقلت في بعضه : هذا حديث كذب ، وسائر ذلك أحاديث صحاح .

فقال لي من أين علمت أن هذا خطأ وأن هذا باطل وأن هذا كذب؟

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٩٠) .

(٢) أصحاب الرأي مصطلح يطلق في ذلك الزمن على الفقهاء الذين ليس لهم عناية برواية الحديث .

أخبرك راوي هذا الكتاب بأني غلطت وأني كذبت في حديث كذا ؟ فقلت : لا ، ما أدري هذا الجزء من رواية من هو ؟ غير أني أعلم أن هذا خطأ وأن هذا الحديث باطل وأن هذا الحديث كذب ، فقال تدعي الغيب؟ قال : قلت : ما هذا ادعاء الغيب ، قال : فما الدليل على ما تقول ؟ قلت : سل عما قلت من يحسن مثل ما أحسن ، فان اتفقنا علمت أنا لم نجازف ولم نقله إلا بفهم . قال : من هو الذي يحسن مثل ما تحسن ؟ قلت : أبو زرعة ، قال : ويقول أبو زرعة مثل ما قلت ؟ قلت : نعم ، قال : هذا عجب ، فأخذ فكتب في كاغد[1] ألفاظي في تلك الأحاديث ثم رجع إليّ وقد كتب ألفاظ ما تكلم به أبو زرعة في تلك الأحاديث ، فما قلت : إنه باطل قال أبو زرعة : هو كذب قلت : الكذب والباطل واحد ، وما قلت : إنه كذب قال أبو زرعة : هو باطل ، وما قلت : إنه منكر قال : هو منكر كما قلت وما قلت إنه صحاح قال أبو زرعة : صحاح فقال : ما أعجب هذا تتفقان من غير مواطأة فيما بينكما ، فقلت : فقد علمت من ذلك أنا لم نجازف وإنما قلناه بعلم ومعرفة قد أوتينا ، والدليل على صحة مانقوله بأن دينارا مُبَهرجًا يحمل إلى الناقد فيقول : هذا دينار مُبَهرج ويقول لدينار : هو جيد ، فإن قيل له من أين قلت إن هذا مُبَهرج ؟ هل كنت حاضراً حين بُهرج هذا الدينار ؟ قال : لا ، فإن قيل له فأخبرك الرجل الذي بهرجه أني بهرجت هذا الدينار ؟ قال : لا ، قيل فمن أين قلت إن هذا مُبَهرج ؟ قال : علمًا رُزقتُ ، وكذلك نحن رُزقنا معرفة ذلك ، قلت : فَتَحْمل فصَّ ياقوت إلى واحد من البصراء من الجوهريين

(١) يعني في ورق .

فيقول: هذا زجاج، ويقول لمثله: هذا ياقوت، فإن قيل له: من أين علمت أن هذا زجاج وأن هذا ياقوت؟ هل حضرت الموضع الذي صُنع فيه هذا الزجاج؟ قال: لا، قيل له: فهل أعلمك الذي صاغه بأنه صاغ هذا زجاجًا؟ قال: لا، قال: فمن أين علمت؟ قال: هذا علم رُزقتُ، وكذلك نحن رُزقنا علمًا لايتهيأ لنا أن نخبرك كيف علمنا بأن هذا الحديث كذب وهذا حديث منكر إلا بما نعرفه.

قال أبو محمد: تعرف جودة الدينار بالقياس إلى غيره فإن تخلف عنه في الحمرة والصفاء علم أنه مغشوش، ويعلم جنس الجوهر بالقياس إلى غيره فإن خالفه في الماء والصلابة علم أنه زجاج، ويقاس صحة الحديث بعدالة ناقليه، وأن يكون كلاما يصلح أن يكون من كلام النبوة، ويُعلم سقمه ونكارته بتفرد من لم تصح عدالته بروايته والله أعلم[1].

ومما يبين قلة النقاد البارعين في الحكم على الأحاديث حتى في زمن ازدهار هذا العلم ما ذكره ابن أبي حاتم قال: سمعت أبي يقول: جرى بيني وبين أبي زرعة يوما تمييز الحديث ومعرفته، فجعل يذكر أحاديث ويذكر عللها، وكذلك كنت أذكر أحاديث خطأ وعللها وخطأ الشيوخ، فقال لي: يا أبا حاتم قلَّ من يفهم هذا، ما أعز هذا، إذا رفعت هذا من واحد واثنين فما أقل من تجد من يحسن هذا! وربما أشك في شيء أو يتخالجني شيء في حديث فإلى أن ألتقى معك لا أجد من يشفيني منه. قال أبي: وكذاك كان أمري[2].

---

(١) الجرح والتعديل ١/٣٤٩ - ٣٥١.

(٢) الجرح والتعديل ١/٣٥٦.

وإذا كان لايوجد غير اثنين ممن يحسنون الحكم على الأحاديث في ذلك الزمن المزدهر بعلوم الحديث وروايته فكيف بعصرنا الحاضر ؟!

ومن ذلك ما رواه أبو محمد المخلدي قال: أخبرنا أبو حامد الأعمش: أن إنساناً قرأ على الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري حديث حجاج بن محمد عن ابن جريج عن موسى بن عقبة عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كفارة المجلس إذا قام العبد أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك اشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك» فقال له مسلم - يعني ابن الحجاج - : في الدنيا أحسن من هذا الحديث: ابن جريج عن موسى بن عقبة عن سهيل بن أبي صالح ؟ تعرف بهذا الإسناد في الدنيا حديثاً ؟ فقال محمد بن إسماعيل: إلا أنه معلول، فقال له مسلم: لا إله إلا الله - وارتعد - أخبرني به، فقال: استر ما ستر الله، هذا حديث جليل رواه الناس عن حجاج بن محمد عن ابن جريج، فألح عليه، وقبَّل رأسه وكاد أن يبكي، فقال: اكتب إن كان ولابد: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا وهيب حدثنا موسى بن عقبة عن عون بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة المجلس . . . .» فقال له مسلم: لايبغضك إلا حاسد وأشهد أنه ليس في الدنيا مثلك.

وقد جاء في رواية أخرى أن الإمام مسلم جاء إلى الإمام البخاري فقبَّل بين عينيه وقال: دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين وطبيب الحديث في علله . . . ثم ذكر هذا الحديث وأن الإمام

البخاري بين أن علة الإسناد المشهور هي أن موسى بن عقبة لم يُذكر له سماع من سهيل بن أبي صالح[1].

وهذه براعة من الإمام البخاري في فهم علل الأحاديث، حيث إن هذا الفن أصعب فنون علوم الحديث وأشدها غموضًا.

وقد يصل إلى المقصود من ليسوا في مستوى هؤلاء في الذكاء والحفظ ولكن بعد بذل جهد كبير ووقت طويل في البحث عن مرويات الراوي وعن المرويات في الموضوع، بينما يكون هذا الجهد والوقت مختصرين أمام العلماء الأفذاذ لسرعة تذكرهم لهذه الموضوعات.

كما أن الحكم على الأحاديث يحتاج إلى معرفة تامة بموضوع العلل، لأن من شرط قبول الحديث خلوه من العلل.

فإذا بلغ الباحث مرتبة الأئمة الكبار من أمثال أحمد بن حنبل والبخاري وأبي زرعة وأبي حاتم والدار قطني الذين كانوا تُعرض عليهم الأحاديث فيبينون ما فيها من علل حال سماعها غالباً، فإنه جدير بأن يحكم على الأحاديث بأدنى نظر وإلا فإنه - مع التوسع في هذا العلم - بحاجة إلي البحث الطويل حتى يصل إلى معرفة سلامة الحديث من العلل وقد لا يصل إلى ذلك.

ولا يكون العالم متأهلاً للحكم على الأحاديث إلا إذا كان واسع الاطلاع على السنة بمختلف طرقها، وقد كان العلماء قديماً يبدؤون

---

(١) مقدمة فتح الباري / ٤٨٨ .

حياتهم العلمية بالرواية عن العلماء، وكانوا يقطعون آلاف الأميال في رحلاتهم العلمية من أجل رواية أحاديث جديدة أو الاستزادة من طرق الرواية، فإذا أنهوا هذه المرحلة أو قاربوا على الانتهاء واجتمع لدى الواحد منهم عدد من الطرق لكل حديث فإنهم يدخلون مرحلة التأهل للحكم على الأحاديث، ومع ذلك فإنه لم يشتهر بالحكم المذكور إلا قليل من العلماء في كل عصر لأنه من الصعب الإحاطة بالطرق المتعددة للحديث الواحد ومعرفة العلل ونحو ذلك مما يلزم للحكم على الأحاديث.

أما في هذا العصر فيمكن أن تتم المرحلة الأولى بدراسة كتب السنة دراسة وعي واستيعاب على شيوخ متقنين، بحيث يكون الدارس قادراً على جمع طرق الحديث الذي يريد الحكم عليه، والأحاديث الواردة في موضوعه، وفي أثناء هذه الدراسة يدرس مصطلح الحديث على الشيوخ لا ليحكم على الأحاديث في هذه المرحلة وإنما ليفهم به تعبيرات العلماء، وليطبقه على كلامهم في كتب السنة.

ومن خلال دراسته كتب السنة واطلاعه على شروحها ستكون عنده معلومات كثيرة عن طرق الروايات وعن كلام العلماء في الحكم على الأحاديث وعلى الرجال، ولا يمكن أن ينتقل إلى المرحلة الثانية وهي التأهل للحكم على الأحاديث إلا بعد الانتهاء من المرحلة الأولى.

لهذا فإنني حرصت على تتبع حكم العلماء المعتبرين في هذا العلم وإثباته مع النصوص التي أوردها، فإذا حكموا على الأثر بما يشعر بقبوله

فإنني أقبله ولو تبين لي ضعف في إسناده، ولا أقبل مخالفة الباحثين المعاصرين للعلماء السابقين المتبحرين في هذا العلم، لأن أغلب الباحثين المعاصرين حسب علمي لم تتحقق فيهم أهلية الحكم على الأحاديث، فكيف أقبل مخالفتهم لعلماء قد بلغوا الأهلية في ذلك، بل قد بلغ بعضهم القمة في الكفاءة في هذا الشأن؟!.

ومن مسوغات ذلك أن العالم الخبير قد يحكم على الحديث بالصحة بالنظر لمجموع أسانيده من غير أن يصرح بأنه صحيح لغيره، فيأتي من يعارضه فيحكم له بالحسن، لأنه نظر إلى سند واحد ولم يستوعب دراسة أسانيد الحديث، وربما حكم العالم على الحديث بالحسن لشواهده فيأتي من الباحثين المعاصرين من يضعفه لما ظهر له من دراسة أحد أسانيده، وربما حكم العالم على الحديث بالصحة مع عدم بلوغ رجاله درجة الثقة لكون الرواية من صحيفة، وإذا كانت كذلك فإنه لايشترط في رواتها أن يبلغوا تمام الضبط، فيأتي من لم يتعمق في العلم فيحكم على الحديث بالحسن أو الضعف.

وقد حدث ذلك مني حيث حكمت قديما على روايات صحيفة علي بن أبي طلحة بالضعف لأن فيها عبدالله بن صالح وقد وصف بأنه كثير الغلط، ومعاوية بن صالح وقد وصف بأنه له أوهام.

فلما تقدمت في العلم في مرحلة لاحقة حكمت على روايات هذه الصحيفة بالحسن لأن الكلام الذي في معاوية بن صالح لايضر، لأنه لم يهم في تلك الروايات، ولأن عبدالله بن صالح ثبْت في كتابه، وهذه الروايات من صحيفة.

ثم وجدت بعد ذلك أن الحافظ ابن حجر حكم على إسناد رواية من هذه الصحيفة بالصحة، فتعجبت من ذلك وقلت: كيف يحكم على هذه الصحيفة بالصحة وهو الذي تكلم على رواتها في "التقريب" بالكلام السابق ؟!.

ثم تبين لي بعد ذلك أن الرواية إذا كانت من صحيفة فإنه لايشترط في رواتها اتصافهم بتمام الضبط ليُحكم عليها بالصحة لأنهم يروون من صحيفة مكتوبة، فإذا وُصفوا بالعدالة فإن روايتهم صحيحة ولو لم يبلغوا تمام الضبط.

فعرفت بهذا وغيره أن هذا العلم يحتاج إلى جهد كبير وزمن طويل قبل أن يصل صاحبه إلى مرتبة الأهلية للحكم على الأحاديث.

وبهذا يتبين لنا أن مخالفة العلماء المتبحرين في هذا العلم لاتليق بالباحثين المبتدئين، ولاتقبل إلا من عالم مماثل لأولئك العلماء في علمهم أو مقارب لهم على الأقل.

وحينما لانجد حكما للعلماء السابقين الذين يعتد بحكمهم فإن الحاجة قائمة لاجتهاد علماء هذا العصر في الحكم على تلك الأحاديث، ولكن ليس هذا من شأن المبتدئين ولا المتوسطين في هذا العلم، وإنما هو من شأن المنتهين الذين يشهد لهم أهل العلم بالتقدم والتعمق في هذا الشأن، كما هو الحال في علماء العصور السابقة.

إن البحث في الحكم على الأحاديث يمر عادة بمرحلتين: المرحلة الأولى الحكم على رجال الإسناد، والمرحلة الثانية الحكم على الحديث

نفسه، فإذا صدر الحكم من العلماء على رجال الإسناد فقط فقد بقي مرحلة من البحث، وينبغي للعلماء المتأهلين للحكم على الأحاديث أن يكملوا هذه المرحلة، وذلك بالبحث أولا في روايات المتكلم فيهم لمعرفة الحديث المبحوث فيه هل هو مما أخذ عليهم أم لا، ثم بالبحث ثانيا في الروايات المروية في هذا الموضوع إن كان الحديث يحتاج إلى تقوية، أما إذا صدر الحكم على الأحاديث نفسها من علماء هذا الشأن فالمنهج الصحيح أن نقبل حكم هؤلاء العلماء، مالم نعثر على حكم مخالف لمن هم أعلم منهم، وأن نتفرغ للأعمال العلمية الأخرى التي هي بحاجة إلى بحث.

لكن المشاهد في هذا العصر أن بعض الباحثين يأتون إلى هذه الأحاديث التي حكم العلماء عليها بالصحة أوبالحسن أو قبلوها في بابها وانتهى أمر البحث فيها فيقومون باستئناف المرحلة الأولى من البحث حيث يقومون بالحكم على بعض رجالها ببيان ما قيل فيهم من جرح، ثم إن بعضهم يتوقف عند هذه المرحلة من البحث إما تورعا عن الحكم على متون الأحاديث أو لغير ذلك من الأسباب، وهؤلاء لم يصنعوا شيئا سوى التشكيك في قبول نصوص السنة والسيرة، وبعضهم يقوم بالمرحلة الثانية فيحكم على تلك النصوص بالضعف مع أنه غير مؤهل لهذا الحكم لما سبق بيانه من عدم الإلمام بمرويات الرواة المتكلم فيهم، وعدم إحاطته بالنصوص الواردة في الموضوع، وبهذا يكون قد ألغى نصوصاً صالحة مقبولة.

هذا وقد حاولت أن أسير في ترتيب هذه الموضوعات على التسلسل

التاريخي للوقائع، ليكون العثور عليها سهلا لمن أراد ذلك، ولكنني خالفت ذلك في بعض الموضوعات تغليبا لجانب التناسب الموضوعي، وهذا لايكون غالبا في الموضوعات التي اشتهرت بمراحلها التاريخية.

وقد جاءت هذه الموضوعات بحمد الله تعالى مشتملة على مواقف متنوعة، فالأجزاء الأولى يغلب عليها جانب الدعوة والعقيدة لكون أحداثها قد جرت في العهد المكي، والأجزاء التي تليها يغلب عليها الجانب الجهادي والإداري لكون أحداثها قد جرت في العهد المدني وعهد بني أمية، وهناك أجزاء خصصت للمواقف الأخلاقية والعلمية لكون هذه المواقف لاترتبط بالمراحل التاريخية، وهذه قد تم ترتيبها على حسب موضوعاتها .

توثيق الروايات المختارة :

قبل الشروع في بيان هذه المواقف فإنني أذكر كلمة موجزة عن توثيق الروايات التي بنيت عليها المواقف المذكورة فأقول: إنني اعتمدت في اختيار هذه الروايات على كتب السيرة والتاريخ المعتمدة عند أهل العلم ومن أبرزها: سيرة الإمام محمد بن إسحاق عن طريق ابن هشام.

كما اعتمدت على كتب السنة حيث يوجد فيها نصوص كثيرة في السيرة ، ومن أبرزها مسند الإمام أحمد بن حنبل وصحيح الإمام البخاري.

وقد قمت بتوثيق هذه الروايات، وذلك ببيان حكم العلماء المعتدّ بهم في هذا العلم على هذه الروايات، من أمثال الحفاظ : ابن كثير

والذهبي والهيثمي وابن حجر العسقلاني أو اعتمادهم لها .

وليُعلَم أن ما كتبته من توثيق الروايات التي أوردتها من رواية كبار المحدثين فليس ذلك لعدم الثقة بهؤلاء الحفاظ الكبار ، وإنما هو لتحصيل مزيد من الثقة عند القراء الذين قد يشكون في بلوغ تلك الروايات درجة القبول .

منهج العلماء في قبول الأخبار :

حينما اتسعت دائرة الرواية في عهد التابعين ومن بعدهم أصبح يقبل على الرواية رواة متفاوتون من ناحية الحفظ والعدالة ، فظهرت بسبب ذلك الحاجة إلى تمييز الرواة والروايات ، وتصدى لباب الجرح والتعديل ونقد الروايات عدد من العلماء المتبحرين في علم الحديث ورواية الأخبار الذين أصبحوا يدركون الخلل في الروايات بمجرد سماعها بأسانيدها المختلفة .

وقد تمخضت حركة النقد هذه عن مناهج مختلفة في معايير الروايات ، وذلك بعدما اتفق العلماء على قبول ما بلغ درجة الصحة أو الحسن في جميع الموضوعات التي تعرضت لها الروايات ، واتفق العلماء المعتبرون في هذا الشأن على رد الروايات الشديدة الضعف ، وهي التي قد أتى ضعفها من جانب الطعن في بعض رواتها من حيث العدالة[1] .

ولكنهم اختلفوا في جانب قبول الروايات التي جاء الحكم عليها من ناحية اتهام بعض رواتها بالضعف من ناحية الحفظ .

---

(١) وقد ألحق بعض العلماء بذلك من فحش خطؤه وكثرت غفلته .

وفي ذلك يقول الإمام البيهقي رحمه الله في بيان الأحاديث الضعيفة: فهي أحاديث اتفق أهل العلم بالحديث على ضعف مخرجها وهذا النوع على ضربين: ضرب رواه من كان معروفاً بوضع الحديث والكذب فيه، فهذا الضرب لايكون مستعملاً في شيء من أمور الدين إلا على وجه التليين، وضرب لايكون راويه متهماً بالوضع غير أنه قد عرف بسوء الحفظ وكثرة الغلط في رواياته، أو يكون مجهولاً لم يَثْبُت من عدالته وشرائط قبول خبره ما يوجب القبول.

فهذا الضرب من الأحاديث لايكون مستعملاً في الأحكام كما لاتكون شهادة من هذه صفته مقبولة عند الحكام، وقد يستعمل في الدعوات والترغيب والترهيب والتفسير والمغازي فيما لايتعلق به حكم.

ثم ذكر بإسناده عن عبدالرحمن بن مهدي أنه قال: إذا روينا في الثواب والعقاب وفضائل الأعمال تساهلنا في الأسانيد وتسامحنا في الرجال، وإذا روينا في الحلال والحرام والأحكام تشددنا في الأسانيد وانتقدنا الرجال.

وروى بإسناده عن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن محمد بن إسحاق فقال: وأما محمد بن إسحاق فهو رجل تكتب عنه هذه الأحاديث - كأنه يعني المغازي ونحوها - فأما إذا جاء الحلال والحرام أردنا قوماً هكذا - وقبض أصابع يده الأربع من كل يد ولم يضم الإبهام-[1].

---

(١) دلائل النبوة ١/ ٣٣-٣٨، وانظر فتح المغيث ١/ ٢٦٧.

منهج العلماء في تدوين السيرة :

لقد كان للعلماء في تدوين السيرة مناهج متعددة، ولهذا كانت الكتب التي عرضت السيرة النبوية على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : الكتب التي اقتصر أصحابها على ما بلغ درجة الصحة حسب معايير المحدثين، ومن ذلك ما تضمنته كتب السنة التي التزم أصحابها بإخراج الصحيح فقط، وعلى رأس هذه الكتب صحيحا الإمامين البخاري ومسلم.

النوع الثاني : الكتب التي التزم أصحابها بإخراج ما كان صالحاً في هذا الباب، وذلك يشمل الصحيح والحسن والصالح للاعتبار، ومن ذلك كتب السنة التي لم يلتزم أصحابها بإخراج الصحيح وحده، وعلى هذا النحو أكثر كتب السنة المعتبرة مثل كتب السنن الأربع ومسند الإمام أحمد، ومن أبرز ما يدخل في هذا الباب كتب السيرة المعتمدة، وعلى رأسها [سيرة ابن إسحاق] بالنسبة لكتب المتقدمين.

وقد جاءت بعد ذلك كتب مختارة دوَّنها أصحابها بالأسانيد وعلى رأس هذه الكتب [دلائل النبوة للبيهقي] ، وفي هذا المنهج الذي يدل على اختيار ما هو مقبول في هذا الباب يقول الإمام البيهقي : «ويُعلم أن كل حديث أوردته فيه قد أردفته بما يشير إلى صحته، أو تركته مُبْهَماً وهو مقبول في مثل ما أخرجته. وما عسى أوردته بإسناد فيه ضعف أشرت إلى ضعفه، وجعلت الاعتماد على غيره.

وقد صنف جماعة من المتأخرين في المعجزات وغيرها كُتُباً وأوردوا فيها أخباراً كثيرة من غير تمييز منهم صحيحها من سقيمها، ولا مشهورها من غريبها، ولا مرويها[1] من موضوعها، حتى أنزلها من حسنت نيته في قبول الأخبار منزلة واحدة في القبول، وأنزلها من ساءت عقيدته في قبولها منزلة واحدة في الرد.

قال: وعادتي - في كتبي المصنفة في الأصول والفروع - الاقتصار من الأخبار على ما يصح منها دون ما لا يصح، أو التمييز بين ما يصح منها وما لا يصح؛ ليكون الناظر فيها من أهل السنة على بصيرة مما يقع الاعتماد عليه، لايجد من زاغ قلبه من أهل البدع عن قبول الأخبار مَغْمَزاً فيما اعتمد عليه أهل السنة من الآثار.

ومن أَنْعَمَ النظر في اجتهاد أهل الحفظ في معرفة أحوال الرواة، وما يقبل من الأخبار وما يرد، علم أنهم لم يَألُوا جُهْداً في ذلك، حتى إذا كان الابن يَقْدَحُ في أبيه إذا عثر منه على ما يوجب ردّ خبره، والأب في ولده، والأخ في أخيه، لا تأخذه في الله لَوْمَةُ لائم، ولا تَمْنَعُه في ذلك شَجْنَةُ رَحم ولا صلة مال، والحكايات عنهم في ذلك كثيرة، وهي في كتبي المصنفة في ذلك مكتوبة.

ومن وقف على تمييزي في كتبي بين صحيح الأخبار وسقيمها، وساعده التوفيق علم صدقي فيما ذكرته.

---

(١) هذا فيه تجوُّز في التعبير لأن الحديث الموضوع من جملة المروي، ومن السياق يفهم أن المراد ما له أصل ثابت وإن كان ضعيفاً.

ومن لم يُنْعم النَّظر في ذلك ولم يساعده التوفيق فلا يغنيه شرحي لذلك، وإن أكثرت، ولا إيضاحي له، وإن بلغت، كما قال الله عز وجل: ﴿**وما تغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون**﴾»[1]،[2].

وقد بين في موضع آخر أنه قد يورد ما لم يسغ قبوله لكونه يوضح ما سبق من الروايات المقبولة حيث قال: «على نحو ما شرطته في مصنفاتي، من الاكتفاء بالصحيح من السقيم، والاجتزاء بالمعروف من الغريب إلا فيما لايتضح المراد من الصحيح أو المعروف دونه فأورده، والاعتماد على جملة ما تقدمه من الصحيح أو المعروف عند أهل المغازي والتواريخ»[3].

النوع الثالث: الكتب التي اعتمد أصحابها على مجرد الرواية وجمع مروياتهم وذكر إسنادهم في ذلك ليكون محل دراسة للعلماء.

وقد جاء في مقدمة تاريخ الطبري ما يشعر بأنه قد سار في كتابه على هذا المنهج وذلك في قوله: «فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً من الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يُؤتَ في ذلك من قبلنا وإنما أُتيَ من قبل بعض ناقليه إلينا وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدِّي إلينا»[4].

---

(١) سورة يونس آية [١٠١].

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٤٧

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٦٩.

(٤) تاريخ الطبري ١/ ٨.

وبما أنه قد صدَّر كتابه بما يشعر بعدم قيامه بانتقاء الروايات المقبولة فإنه ينبغي عرض مروياته على روايات المحققين القدامى كابن هشام وعلى اختيارات الحفاظ المتأخرين كابن كثير والذهبي. ونظراً لاحتمال كون الطبري لايتقيد باختيار الروايات المقبولة فإنني لم أذكر عنه شيئاً مما يتعلق بالسيرة النبوية إلا على سبيل الاستشهاد.

وبعد أن تم تدوين السيرة في كتبها القديمة التي وصلت إلينا برواية أصحابها قام بعض العلماء في مختلف العصور بتدوين كتب في السيرة اختاروها من كتب السيرة والسنة وكان منهجهم يقوم على إيراد الأخبار كاملة من كتب السيرة مع الإشارة إلى روايات كتب السنة وأحياناً يقدمون روايات كتب السنة إذا كانت كاملة مع بيان الخبر ويشيرون إلى روايات أهل السيرة.

ومن أبرز هذه الكتب [عيون الأثر] لابن سيد الناس و [البداية والنهاية] لابن كثير و[تاريخ الإسلام] للذهبي.

يقول الحافظ أبو الفتح ابن سيد الناس: وعمدتنا فيما نورده من ذلك على محمد بن إسحاق إذ هو العمدة في هذا الباب لنا ولغيرنا، غير أني قد أجد الخبر عنده مرسلاً وهو عند غيره مسنداً فأذكره من حيث هو مسند ترجيحاً لمحل الإسناد[1].

---

(١) عيون الأثر ١/٧.

منهج الباحثين في العصر الحاضر :

لقد كان اهتمام الباحثين في بداية هذا العصر متجهاً نحو تلخيص أحداث السيرة وعرضها بأسلوب سهل مع حذف أسانيدها وحذف المكرر منها ، وكان لتلك الطريقة فوائدها الملموسة في تقريب السيرة إلي أذهان القراء وخاصة المبتدئين .

ثم كان اتجاه المؤلفين في السيرة بعد ذلك إلى استنباط العبر والفوائد من النصوص وبيان المواقف الدعوية من خلال أحداث السيرة ، فقد كان اهتمام هؤلاء المؤلفين موجهاً إلى المقاصد المهمة من السيرة وتوجيه الاستفادة منها في مجال الدعوة الإسلامية ، ومحاولة علاج مظاهر النقص في تطبيق الإسلام في هذا العصر من خلال عرض النماذج العالية لهذا التطبيق في العهد النبوي .

ولكن مما يؤخذ على بعض المؤلفين في هذين الاتجاهين أنهم سردوا أحداث السيرة مع إغفال ذكر المراجع ، فأصبحت هذه الكتب تفقد سند توثيقها .

وهذا المنهج إضافة إلى كونه مخالفاً لمنهج السلف في الرواية والتدوين فإنه يفقد الثقة بهذه النصوص ويجعل القراء لايطمئنون إلى ثبوت تلك الأخبار لاحتمال أنه قد اختلط فيها المقبول والمردود .

وبالتالي فإن ما بني عليها من الفوائد والعبر لاينتج الثمرات المرجوة من أخذ العبرة والموعظة لقيام الشك في النفوس في تلك الأخبار التي بنيت عليها تلك النتائج .

وإذا عرفنا أن الميزة الكبرى لتلك المؤلفات هي ما قام به أصحابها من تلخيص السيرة لتقريبها إلي الأذهان أو استنباط الفوائد والعبر فإن هذين المقصدين لن تتحقق الفائدة منهما إلا إذا قام الباحثون بتوثيق النصوص التي بنيت عليها تلك النتائج .

ثم كان اتجاه بعض الباحثين في السيرة إلى دراسة الأسانيد واستخراج النصوص الصحيحة ، حيث ألفوا كتباً في السيرة اقتصروا فيها على ما بلغ درجة الصحة .

وهذا المنهج له فائدته الكبرى في معرفة النصوص الصحيحة التي يمكن أن تؤخذ منها العقائد والأحكام ونحوها حيث إن هذه المجالات هي التي يشترط أن يكون الحديث فيها صحيحاً أو حسناً .

ولكن المنهج الذي سار عليه هؤلاء المؤلفون لم يحدَّد فيه هذا المقصد بوضوح ، وربما كان هناك إشارات خفيفة إليه في بعض المقدمات ، ولكن الذي يفهمه غالب القراء أن هذه الكتب هي كتب السيرة المعتمدة ، وأن كتب السيرة القديمة قد اختلط فيها الصحيح والضعيف فلا يعتمد عليها .

وحينما نأخذ هذه الكتب المعاصرة التي اقتصرت على ذكر النصوص الصحيحة على أنها كتب في السيرة فإنه سيحصل بذلك نقص وفجوات في عرض الأحداث ، لأن القصة قد تأتي بعدة أخبار يكون بعضها صحيحاً وبعضها دون ذلك ، فإذا اقتصرنا على الصحيح منها حصل انقطاع في بعض مراحل القصة ، أو حصل طمس لها بالكامل ما عدا الإشارة إلى خبر يعتبر من نتائج القصة أو من ملابساتها .

ومن أمثلة ذلك خبر حصار الشعب، حيث اكتفى بعض مؤلفي السيرة الصحيحة بذكر حديث للإمام البخاري جاء فيه ذكر نزول رسول الله ﷺ في المحصب وأنه المكان الذي تقاسم فيه الكفار على الكفر، يعني يوم أن قاطعوا بني هاشم ومن كان معهم، فهل هذا الخبر القصير يفيد شيئاً عن حصار الشعب الذي فصله أهل السيرة، واستنتج منه العلماء الفوائد والعبر العظيمة ؟!

وكذلك خبر خروج النبي ﷺ لدعوة أهل الطائف قد اقتصر بعض من ألفوا في السيرة الصحيحة على إيراد حديث الإمام البخاري الذي فيه بيان أن أشد ما مرّ على النبي ﷺ من الأذى مالقيه من أهل الطائف، فهل يسوغ لمؤلف أن يعقد فصلاً عن خروج النبي ﷺ إلى الطائف ثم لايذكر إلا هذا الحديث ؟!

إن هذه المؤلفات لاتصلح أن تكون كتباً في السيرة، خاصة إذا توقعنا أنه قد يستغني بها طلاب العلم عن الرجوع إلى كتب السيرة القديمة، لأن وصف هذه الكتب المعاصرة بالصحة يقتضي الدعوة إلى الإعراض عما لم يدون في هذه الكتب الصحيحة.

لقد سار بعض مصنفي كتب السنة الأوائل على اختيار الأحاديث الصحيحة في السيرة وما يقرب منها وأدخلوها في كتبهم في مناسباتها، وهذا عمل لاغبار عليه لأنهم لم يؤلفوا كتباً في السيرة وإنما ألفوا كتباً في السنة، واختاروا من السيرة ما يصل إلى مستوى اختيارهم في السنة من درجة الصحة، أما تأليف كتب في السيرة تختص بما يصل إلى درجة الصحة فليس من منهج العلماء المتقدمين فيما أعلم.

وعلماء السنة الذين دونوا السيرة في كتبهم لم يقصدوا استيعاب أحداث السيرة كلها ولا تأليفها على ترتيبها الزمني في الغالب وإنما قصدوا اختيار بعض الأخبار التي بلغتهم على حسب منهجهم في تصنيف الكتب في السنة .

وكان الأولى بهؤلاء الباحثين الذين توجهوا إلى جمع نصوص السيرة الصحيحة أن يختار الواحد منهم كتاباً من كتب السيرة المشهورة وأن يعلق عليه ببيان الأخبار الصحيحة التي ورد أكثرها في كتب السنة ، حتى نحافظ على تسلسل الأخبار وتكاملها مع معرفة ما بلغ منها درجة الصحة لمن أراد ذلك .

هذا وإن أسوأ ما في هذا المنهج أن يأتي الباحث فيستخرج ما في كتاب معين من الأحاديث والأخبار التي يراها صحيحة فيفردها في كتاب من غير نظر إلى منهج المؤلف الذي سار عليه في قبول الأخبار .

فإذا أخذنا كتاب [دلائل النبوة] للإمام البيهقي مثلاً فإننا نعرف أن منهجه أنه يورد في كتابه الأخبار الصحيحة ويشير إلى صحتها ، ويورد الأخبار المقبولة في مثل هذا الموضوع الذي ألف الكتاب لبيانه ، وأنه إذا أورد خبراً ضعيفاً بَيَّن ضعفه واعتمد على غيره ، كما بَيَّن أنه قد يورد مالا يُقْبَل بعد إيراد المقبول لكون المقبول لايتضح المراد منه إلا بإيراد ذلك الخبر فيورده للبيان ويكون الاعتماد على ما تقدمه من أخبار مقبولة .

وهذا لايعني خلو الكتاب من وجود نصوص لاينطبق عليها شرط المؤلف فإن كثيراً من الكتب لاتخلو من ذلك ، والعلماء من أهل هذا

الشأن يقومون عادة ببيان الأحاديث الشديدة الضعف مع الالتزام بمنهج المؤلف .

أما ما يفعله بعض الباحثين المعاصرين من الهجوم على كتب العلماء المحققين من غير نظر إلى منهجهم الذي ساروا عليه والقيام باختصار كتبهم وذلك بالاقتصار على ذكر الأحاديث الصحيحة وحذف كل خبر ينزل عن ذلك، فإنه يعتبر جناية على أولئك العلماء، والذي يفعل ذلك يكون قد اقتنع بمنهج النقاد المتشددين وهو عدم قبول ما نزل عن درجة الحسن مطلقاً بينما قد يكون المؤلف يرى قبول الأخبار الصالحة للاعتبار في مجال السيرة والدلائل ونحوها، وبهذا يكون المختصر قد ألزم المؤلف بمنهج لا يراه.

نعم لو جاء من يستدرك على الكتب التي عنونها أصحابها بالصحة كصحيح ابن خزيمة وصحيح ابن حبان فيستخرج منها ما يراه صحيحاً فإن هذا العمل مقبول، لأن من قام بهذا العمل يكون قد استدرك على المؤلف على حسب منهجه الذي التزم به ولم يحافظ عليه، مع أن المنهج السليم هو الإبقاء على كتاب المؤلف كما هو مع التعليق عليه، هذا هو منهج علماء السلف رحمهم الله تعالى، فإنهم كانوا يحترمون كتب العلماء السابقين وإن خالفوهم في الرأي والاجتهاد، ومن أمثلة ذلك ما قام به الإمام الذهبي من اختصار مستدرك الحاكم، فإنه لم يقتصر على ذكر الأحاديث التي يراها صحيحة ويلغي ما عدا ذلك، بل أثبت الكتاب كله حتى ما يراه منه موضوعاً مع بيان رأيه في الحكم على الأحاديث التي أوردها.

إن الذي كان يقوم به العلماء قديماً من أنواع الاختصار يتضمن فائدة لطلاب العلم من غير أن يترتب على عملهم تشويه للكتاب الأصلي وذلك مثل ما يقومون به من حذف الأسانيد أو حذف الأخبار المكررة أو الجمع بين الأمرين أو الاقتصار على ما ذكر المؤلف مما لا يوجد في الكتب المشهورة ونحو ذلك من باب تسهيل المعرفة على طلاب العلم .

أما الاقتصار على ذكر بعض أخبار الكتاب ووصفها بالصحة فإن ذلك يعتبر طعناً في بقية الكتاب إلا إذا كان ما تُرك غير مقبول حتى على منهج المؤلف نفسه .

إن العلماء السابقين المتبحرين في هذا العلم من أمثال الإمام البيهقي كانوا أقدر على استخراج الأخبار الصحيحة وإفرادها في كتاب من علماء هذا العصر وباحثيه ولكن كان منهجهم قبول ما كان صالحاً للاعتبار في المجالات التي حددوها ، ومنها السيرة ودلائل النبوة لما يترتب على ذلك من فوائد عظيمة في مجال الدعوة والقدوة الحسنة ، في مجال الأخلاق والسياسة والإدارة والحرب وغير ذلك ، وعلى هذا المنهج سار من جاء بعدهم من العلماء الكبار كالذهبي وابن كثير وابن حجر العسقلاني .

ولا أدري كيف يسوغ لباحث أن يلغي هذه الأخبار مع ترتب هذه الفوائد العظيمة عليها وعدم تعارضها مع أصول الإسلام وقواعده وأحكامه الثابتة !

الآثار السلبية لهذا المنهج :

إن هذا المنهج الذي يقوم على اختيار النصوص الصحيحة من السيرة

وجمعها في كتب وعرضها على أنها هي السيرة المعتمدة بالرغم من نتيجته الإيجابية فيما يتعلق بكونه من روافد السنة التي تثبت بها العقائد والأحكام فإن له نتائج سلبية خطيرة ، منها أنه يعتبر اختزالاً للسيرة وتضييعاً لثروة علمية كبرى كانت ولا تزال المصدر الثالث بعد الكتاب والسنة في الدعوة إلى الإسلام وتقويم السلوك وعمارة الأرض على مقتضى شريعة الله تعالى .

إن النبي ﷺ قد أذن لنا بالتحديث عن بني إسرائيل حيث يقول : «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» رواه الإمام البخاري [1] .

وإذا كان لا حرج من التحديث عن بني إسرائيل لأخذ العبرة والموعظة مع أن أخبارهم خالية تماماً من الإسناد فكيف بأخبار المسلمين المروية غالباً بالسند وإن كان بعضها لا يصل إلى درجة الصحيح أو الحسن؟

لا شك أن الاستفادة من هذه الروايات الإسلامية في مجال الوعظ وتقويم الأخلاق وأخذ الخبرة في مجال الحرب والإدارة من أهم الأمور التي يقوم عليها بناء الأمة وربطها بماضيها المشرق الذي تفاخر به الأمم .

ومن آثار هذا المنهج السلبية أن بعض طلاب العلم أصبحوا لا يقبلون روايات السيرة التي لم يُدخلها هؤلاء المؤلفون المعاصرون في كتبهم التي اختاروا مادتها ووصفوها بالصحة ، ومن أمثلة ذلك أنني كنت يوماً أتحدث عن العبر والفوائد التربوية في خبر خروج النبي ﷺ إلى الطائف

---

(١) صحيح البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء رقم [٣٤٦١] الفتح ٦/ ٤٩٦ .

ودعوة أهلها فقال لي أحد الحاضرين : أثبت أولاً هذا الخبر ثم بين ما فيه من الفوائد ، فقلت له : ألا يكفي أن ابن إسحاق الإمام الكبير في السيرة قد أخرجه وأثبته ابن هشام في تهذيبه لسيرته ؟ فقال : لا إن روايات ابن إسحاق غير صحيحة .

ومن آثار ذلك حتى على المؤلفين في السيرة أن أحدهم ذكر رواية الإمام البخاري في قول النبي ﷺ عن أسرى بدر : « لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له » فاستشهد بذلك على أن لخروج النبي ﷺ إلى الطائف أصلاً ، وذلك لما جاء في خبر الخروج إلى الطائف من أن المطعم قد أجار النبي ﷺ يوم أن أراد دخول مكة .

فهل خبر خروج النبي ﷺ إلى الطائف لا يثبت إلا بمثل هذا الخبر القصير الذي لا تفهم علاقته بهذا الخروج إلا بعد معرفة تفاصيل رحلة الطائف ؟ وهل فقدنا الثقة بخبر ابن إسحاق المفصل حتى نحتاج إلى تدعيمه بهذه الرواية التي لا تدخل ضمن أخبار رحلة الطائف ؟!

ومن الآثار السلبية لهذا المنهج أن بعض الباحثين يحكم على بعض النصوص بالضعف ثم يتبع ذلك بالكتابة عن العبر والفوائد التي يحتوي عليها النص ، وفي هذا نوع من التناقض ، لأنه ما دام قد حكم على النص بالضعف فإنه قد ألغاه من التاريخ لأن الحكم على النص بالضعف يدفع القاريء إلى عدم الثقة به وصرف النظر عنه وعن التعليق عليه .

وهؤلاء الباحثون يكونون قد تأثروا بروعة النصوص فأحبوا أن يسهموا في إبداء مشاعرهم نحو عظمة مضامينها ، ولكنهم تأثروا بالمنهج

السائد الذي أصبح رائجاً في هذا العصر ، وهو أن لا يثق الباحث بأي نص كان إلا بعد بحث إسناده وإن كان مصدره قد بلغ آفاق الشهرة في العظمة والإتقان وأقره عظماء المؤلفين من أساطين العلم ، ما عدا ما اتفق علماء الأمة على استثنائه وهو ما أخرجه الإمام البخاري أو مسلم رحمهما الله في صحيحيهما .

المشكلة والحل :

تبين لنا من هذا العرض أن هناك مشكلة في أخبار السيرة والتاريخ ، وهي أن بعض الأخبار في هذا الموضوع لا تصل إلى درجة القبول عند بعض المحدثين حيث لا يبلغ إسنادها درجة الصحيح أو الحسن .

وهذه الأخبار منها ما هو صالح للاعتبار ، وهي أحاديث من اتهموا في حفظهم ولم يتهموا في عدالتهم ولم يصلوا إلى حد الفحش في الغلط ومنها ما هو مردود ، وهي أحاديث من اتهموا في عدالتهم أو فحش غلطهم ، فأما هؤلاء فقد اتفق العلماء على رد أحاديثهم وعدم الاعتبار بها .

وأما الأحاديث الصالحة للاعتبار فللعلماء أمامها موقفان :

الموقف الأول : موقف المعتدلين ، وهم العلماء الذين فرقوا بين الموضوعات التي اشتملت عليها النصوص ، حيث اشترطوا بلوغ النص درجة الحسن أو الصحة فيما إذا كان في العقائد أو الأحكام وتساهلوا في موضوعات أخرى منها السيرة والرقائق وفضائل الأعمال فقبلوا النصوص الصالحة للاعتبار وهي التي لم تبلغ درجة الحسن لكون بعض

رواتها وصفوا بالضعف من قبل حفظهم إذا لم يكن في متنها نكارة وإن لم يكن لها شواهد ترفعها إلى درجة الحسن واعتبروها من قبيل الحديث الصالح للعمل في المجالات المذكورة بينما توقفوا عن العمل بالأحاديث الصالحة للاعتبار في مجال الأحكام ، حتى يجدوا لها ما يرفعها إلى درجة الحسن .

وهذا هو الذي عبر عنه الحافظ عبد الرحمن بن مهدي بقوله السابق الذكر « إذا روينا في الثواب والعقاب وفضائل الأعمال تساهلنا في الأسانيد وتسامحنا في الرجال ، وإذ روينا في الحلال والحرام والأحكام تشددنا في الأسانيد وانتقدنا الرجال » .

فهذا يعني أن الصالح للاعتبار صالح للعمل في هذه المجالات ، بينما لا يكون كذلك في الأحكام ، بل لا بد له من شواهد ترفعه إلى درجة الحسن .

ولا يمكن أن يحمل تسامح هؤلاء العلماء وتساهلهم على قبول الأحاديث التي بلغت درجة الحسن في هذه المجالات لأن الحديث الحسن مقبول حتى في الأحكام باتفاق العلماء فلا بد أن يحمل كلامهم على قبول ما دون الحسن في تلك الأمور وهو الصالح للاعتبار .

وكذلك لا يمكن حمل كلامهم على التسامح في الرواية مع اعتبار تلك الأحاديث غير صالحة للعمل إلا إذا جاء ما يرفعها إلى درجة الحسن لأن هذا الأمر وارد حتى في أحاديث الأحكام فكونهم يتشددون فيما يتعلق بالأحكام دليل على أنهم لم يريدوا مجرد تدوين الأحاديث بما في

ذلك الصالح للاعتبار حتى يوجد ما يقويه ، وإنما أرادوا اختيار الأحاديث المقبولة الصالحة للعمل .

أما الموقف الثاني : فهوموقف المتشددين في النقد ، وهم الذين لا ينظرون إلى موضوع النص ، وإنما ينظرون إلى الإسناد فيردون جميع الأحاديث الضعيفة ما لم يرد ما يسندها ويرفعها إلى درجة الحسن .

ولا شك أن مذهب جمهور العلماء هو الراجح ، وهو الذي عليه عمل أغلب العلماء الذين دونوا السنة والسيرة .

بل إن بعض كبار العلماء كانوا يحكمون على بعض كبار المؤرخين بالإمامة في التاريخ كما ذكر الحافظ ابن سيد الناس والحافظ ابن حجر عن الإمام ابن إسحاق مع أنه لم يتجاوز مرتبة الصدق في الحديث عند بعضهم [(١)] . وكما ذكر الحافظ الذهبي عن الواقدي بأنه إمام المؤرخين مع أن المحدثين حكموا عليه بأنه متروك [(٢)] .

وهذا دليل واضح على أن العلماء يفرقون بين معايير النقد في الحديث ومعاييره في التاريخ .

بل أبلغ من ذلك أن من الرواة من حكم له النقاد بالإمامة في القراءة مع الحكم عليه بالترك في الحديث وهو حفص بن سليمان القاريء راوي القراءة عن عاصم حيث قال عنه الحافظ ابن حجر : متروك الحديث مع إمامته في القراءة [(٣)] .

---

(١) تقريب التهذيب ٢/ ١٤٤ ، عيون الأثر ١/ ٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤١ .

(٣) تقريب التهذيب ١/ ١٨٦ .

وأساس ذلك أن من الرواة من يوجه اهتمامه الأكبر لفن من الفنون فيتقنه إتقاناً تاماً بينما يعطي الفن الآخر بعض اهتمامه فلا يبلغ فيه حد الإتقان .

وهكذا كان المؤرخون الأوائل الأكابر أمثال ابن إسحاق والواقدي ، حيث شهد لهم معاصروهم بالإجادة والإتقان في السير والمغازي لكونهم وجهوا اهتمامهم الأكبر لهذا الباب ، حتى إن بعضهم كالواقدي كان يذهب إلى مواطن الغزوات فيسأل أهل البادية عن تلك الأماكن ليطبق ما جاء في الروايات على ذلك .

ويأتي هنا تساؤل مهم ، وهو هل نحكم على هذه النصوص بالضعف ثم نقبلها ونستفيد منها ؟ أم نقبلها من غير حكم عليها بذلك ؟

فالذي سار عليه جمهور العلماء الذين دونوا السيرة هو قبول تلك الروايات الصالحة للاعتبار من غير حكم عليها بالضعف واعتبارها صالحة للعمل بها ، وهو رأي جمهور علماء الحديث كما سبق .

وبعض العلماء المعاصرين يرون قبولها تاريخياً مع الحكم عليها بالضعف ، والذي ذهب إليه جمهور العلماء هو الراجح لأن الحكم على هذه الأخبار بالضعف يفقد الثقة بها ، ولا يجعل النفوس تنشط للاتعاظ بها والاستفادة منها ، ولأن هذا هو الموافق لمنهج السلف وهم جمهور العلماء كما سبق .

ومما ينبغي أن يتنبه له الباحثون في التاريخ أن يستبعدوا جميع الأخبار التي تشتمل على طعن في الصحابة رضي الله عنهم لأن ذلك

يتنافى مع عدالتهم التي ثبتت في نصوص كثيرة صحيحة ، وأن يقبلوا ما يشتمل على بيان فضائلهم إذا ورد من طريق صالح للعمل ولم يكن في متنه نكارة .

إن الذين يردون أخبار فضائل الصحابة لأن أسانيدها لم تصل إلى درجة الحسن يسيئون إليهم لأنهم يغطون على فضائلهم التي لا مثيل لها في الجملة في جيل آخر .

وأخيراً فإن مما ينبغي التنبه له أن يتحلى طلاب العلم بالورع وأن لا يسارعوا إلى الحكم على الروايات بمجرد النظر إلى أسانيدها فإن ذلك قد يكون فيه هدم للتاريخ وإقامة لبناء مهلهل لا يقوم على أسس ثابتة ، وأن يكتفوا بحكم العلماء السابقين المتبحرين في هذا العلم فيما حكموا عليه أو أقروه في كتبهم على سبيل الاختيار ، وأن يقتصر أمر الحكم من خلال دراسة الأسانيد على النوادر من العلماء الكبار في هذا الفن الذين أمضوا فيه عمراً طويلاً وشهد لهم العلماء بالفهم وسعة الاطلاع .

ابن إسحاق الإمام في السيرة :

حيث إن ابن إسحاق هو أشهر من ألف في السيرة واعتمد العلماء على سيرته ، وحيث إنني أوردت من رواياته في هذا الكتاب كثيراً فإنني سأذكر له ترجمة موجزة أبين فيها مكانته العلمية وخاصة في السيرة .

فهو محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار المدني نزيل العراق مولى قيس بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف [1] .

---

(١) عيون الأثر ١/ ٨ ، وتقريب التهذيب ٢/ ١٤٤ .

ثناء العلماء عليه وتعديله :

قال الزهري : لا يزال بالمدينة علم ما بقي هذا – يعني ابن إسحاق –

وقال شعبة : محمد بن إسحاق أمير المحدثين ، قيل له : لم ؟ قال : لحفظه . وسئل أبو زرعة عنه فقال : من تكلم في محمد بن إسحاق ؟ هو صدوق .

وقال ابن المديني : مدار حديث رسول الله ﷺ على ستة ، فذكرهم ثم قال : وصار علم الستة عند اثني عشر أحدهم ابن إسحاق .

وسئل ابن شهاب الزهري عن المغازي فقال : هذا أعلم الناس بها -يعني ابن إسحاق- .

وقال الشافعي : من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على ابن إسحاق .

وقال أبو معاوية : كان ابن إسحاق من أحفظ الناس ، فكان إذا كان عند الرجل خمسة أحاديث أو أكثر جاء فاستودعها محمد بن إسحاق ، فقال : احفظها علي فإن نسيتها كنت قد حفظتها علي .

وقال أبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو النصري الدمشقي : محمد بن إسحاق قد أجمع الكبراء من أهل العلم على الأخذ عنه ، منهم سفيان – يعني الثوري – وشعبة وابن عيينة والحمادان وابن المبارك وإبراهيم بن سعد ، وروى عنه من الأكابر يزيد بن أبي حبيب ، وقد اختبره أهل الحديث فرأوا صدقاً وخيراً مع مدحة ابن شهاب له .

وقال البخاري : ينبغي أن يكون له ألف حديث ينفرد بها لا يشاركه فيها أحد .

وقال ابن معين : محمد بن إسحاق ثقة وليس بحجة .

وقال يعقوب بن شيبة : سألت ابن معين عنه فقلت : في نفسك من صدقه شيء ؟ قال : لا هو صدوق .

وقال العجلي عن ابن إسحاق : مدني ثقة .

وقال ابن عدي : ولمحمد بن إسحاق حديث كثير قد روى عنه أئمة الناس ولو لم يكن له من الفضل إلا أنه صرف الملوك عن الاشتغال بكتب لا يحصل منها شيء إلى الاشتغال بمغازي رسول الله ﷺ ومبعثه ومبدأ الخلق لكانت هذه فضيلة سبق إليها . وقد صنفها بعده قوم فلم يبلغوا مبلغه ، وقد فتشت أحاديثه الكثيرة فلم أجد فيها ما يتهيأ أن يقطع عليه بالضعف ، وربما أخطأ أو يهم في الشيء بعد الشيء كما يخطىء غيره وهو لا بأس به .

وقال ابن حبان : ولم يكن أحد بالمدينة يقارب ابن إسحاق في علمه ولا يوازيه في جمعه ، وهو من أحسن الناس سياقاً للأخبار . . إلى أن قال : وكان يكتب عمن فوقه ومثله ودونه ، فلو كان ممن يستحل الكذب لم يحتج إلى النزول ، فهذا يدلك على صدقه [1] .

---

(١) عيون الأثر ١/ ٨-١٣ ، وتهذيب التهذيب ٩/ ٣٩-٤٦ .

ومع هذا الثناء الكثير على ابن إسحاق فقد اتهم باتهامات لا تصل إلى حد الجرح المؤثر وقد أجاب العلماء على تلك الاتهامات ، ومن أفضل وأوسع ما رأيت في الجواب عنها ما ذكره الحافظ ابن سيد الناس في كتابه « عيون الأثر » فليرجع إليه من أراد معرفة ذلك (١) .

وممن لخص القول في الإمام محمد بن إسحاق الحافظ ابن حجر حيث قال : محمد بن إسحاق بن يسار الإمام في المغازي مختلف في الاحتجاج به ، والجمهور على قبوله في السير ، قد استفسر من أطلق عليه الجرح فبان أن سببه غير قادح ، وأخرج له مسلم في المتابعات ، وله في البخاري مواضع عديدة معلقة عنه وموضع واحد قال فيه : قال إبراهيم بن سعد عن أبيه عن ابن إسحاق فذكر حديثاً (٢) .

ومن هذا العرض يتبين لنا أن علماء هذا الشأن قد قبلوا روايات ابن إسحاق ، ومنهم من وثقه ومنهم من وصفه بالصدق ، ومن الذين وصفوه بالصدق مع وصفه بالإمامة في المغازي الحافظ ابن حجر حيث يقول فيه : إمام في المغازي صدوق يدلس (٣) .

وحكم الحافظ ابن حجر ونحوه على ابن إسحاق بالصدق فقط وعدم بلوغه عنده درجة الثقة إنما كان بناءً على مقارنة مروياته في الحديث مع مرويات الثقات ، فهو كذلك بالنسبة للحديث أما بالنسبة للمغازى والسير فقد حكموا له بأنه إمام في هذا الشأن ، ولا يصل إلى الإمامة في

---

(١) عيون الأثر ١/ ١٣ .

(٢) هدي الساري / ٤٥٨ .

(٣) تقريب التهذيب ٢/ ١٤٤ .

العلم إلا من كان ثقة فيما يرويه ، وإذا قارنا بين مروياته في السيرة مع مرويات الآخرين ممن حازوا على التوثيق نجده موافقاً لهم في الغالب مع تفوقه بكثـرة المرويات ، ومن هـذا الباب حاز على الإمامة في هذا المجال .

أما اتهامه بالتدليس فقد أجاب عنه الحافظ ابن سيد الناس بأن تدليسه ليس من النوع الذي يقدح في العدالة [١] ، ويقصد بذلك أن تدليسه ليس عن الضعفاء والمجاهيل .

سيرة ابن هشام :

في هذا الكتاب يرى القارىء اعتمادي في سيرة ابن إسحاق على رواية ابن هشام [٢] عن زياد البكائي [٣] مع الاستشهاد برواية ابن جرير الطبري [٤] بأسانيده عن ابن إسحاق ، وذلك لأن سيرة ابن إسحاق لا توجد اليوم كاملة ، وقد طبع جزء يسير منها بتحقيق محمد حميد الله .

---

(١) عيون الأثر ١/ ١٣ .

(٢) هو عبد الملك بن هشام بن أيوب العلامة النحوي الإخباري أبو محمد الذهلي السدوسي وقيل الحميري . ذكر ذلك الإمام الذهبي وقال : الأصح أنه ذهلي كما ذكره أبو سعيد بن يونس ، وقال : هذب السيرة النبوية ، وسمعها من زياد البكائي صاحب ابن إسحاق - سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٢٨ .

(٣) هو زياد بن عبد الله بن الطفيل العامري البكائي ، قال عنه الحافظ ابن حجر : صدوق ثبت في المغازي وفي حديثه عن غير ابن إسحاق لين - التقريب ١/ ٢٦٨ .

(٤) هو الإمام في التفسير والتاريخ وسائر العلوم الإسلامية أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، قال عنه الخطيب البغدادي : « كان أحد أئمة العلماء ، يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله ، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره » تاريخ بغداد ٢/ ١٦٣ . وقال عنه الإمام الذهبي : « كان من أفراد الدهر علماً وذكاءً وكثرة تصانيف ، =

وقد لقي تهذيب ابن هشام لسيرة ابن إسحاق قبولاً وإعجاباً لدى العلماء على مر الأجيال ، وكان ذلك من عوامل الاحتفاظ بها والإكثار من نسخها حتى كاد ينسى أصلها .

وكان من أسباب الثقة بهذه السيرة أنها مرت على ثلاثة من الأعلام المعتبرين في هذا الشأن وهم ابن إسحاق صاحب السيرة وجامعها ، وزياد البكائي راويها عنه ، وابن هشام راويها عن البكائي ومهذبها .

وقد ذكر ابن هشام في مقدمة السيرة أنه أعرض عن أشياء لم ير قبولها ، وأنه أعرض عن أشياء لم يقرها له البكائي [1] وهذا دليل على أن هذه السيرة قد تعرضت لاختيار ابن إسحاق أولاً ثم لاختيار البكائى ثم لاختيار ابن هشام ، وذلك يعتبر توثيقاً لها من هؤلاء الأئمة .

هذا إضافة إلى أن أصحاب الكتب المختارة الذين يدونون ما يرونه مقبولاً في بابه قد ارتضوا هذه السيرة وأودعوها أو بعضها في كتبهم وعلى رأس هؤلاء الحفاظ : ابن سيد الناس وابن كثير والذهبي وابن حجر ، وكفى بذلك توثيقاً لهذه السيرة .

الواقدي الإمام في المغازي :

هذا وقد ذكرت في الجزء الرابع والأجزاء التي بعده مما يتعلق بالعهد المدني شيئًا من الأخبار التي أخرجها محمد بن عمر الواقدي رحمه الله تعالى لكون جمهور العلماء قبلوا رواياته في المغازي ، وإن كان كثير منهم قد ردُّوا رواياته في السنة .

= قل أن ترى العيون مثله » - سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٦٧ - .

(١) سيرة ابن هشام ١/ ١١ .

وقد كان للواقدي عناية خاصة بالمغازي ، ومما يدل على ذلك ما جاء في قوله : « ما أدركت رجلاً من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ولا مولى لهم إلا سألته : هل سمعت أحدًا من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتل ، فإذا أعلمني مضيت إلى الموضع فأعاينه ، ولقد مضيت إلى المُرَيسيع فنظرت إليها ، وماعلمت غزاة إلا مضيت إلى الموضع حتى أعاينه (١) .

وكذلك ماروُي عن ابن منيع قال : سمعت هارون الفروي يقول : رأيت الواقدي بمكة ومعه ركوة (١) فقلت : أين تريد ؟ قال : أريد أن أمضي إلى حُنين حتى أرى الموضع والوقعة (٢) .

وكذلك ما رُوي عن إبراهيم بن إسحاق الحربي قال : سمعت المسَيَّبي يقول : رأينا الواقدي يوما جالسا إلى أسطوانة في مسجد المدينة وهو يدرُس ، فقلنا : أي شيء تدرس ؟ فقال : جزئي من المغازي ، وقلنا له يومًا : هذا الذي تجمع الرجال تقول : حدثنا فلان وفلان وجئتَ بمتن واحد ، لو حدثتنا بحديث كل واحد على حدة ، فقال : يطول ، قلنا له : قد رضينا ، فغاب عنا جمعة ثم جاءنا بغزوة أحد في عشرين جلدا ، فقلنا : رُدَّنا إلى الأمر الأول (٣) .

ونظرًا لاهتمامه الدقيق بجمع أخبار المغازي ومعرفة تفاصيلها أثنى عليه العلماء من هذا الجانب ، يقول تلميذه وكاتبه محمد بن سعد عنه : وكان عالما بالمغازي واختلاف الناس وأحاديثهم (٤) .

---

(١) تاريخ بغداد ٣/ ٦ ، عيون الأثر / ١٨ .

(١) الركوة إناء من جلد يحمل به الماء .

(٢) تاريخ بغداد ٣/ ٦ ، عيون الأثر / ١٨ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٦٠ ، عيون الأثر / ١٨ .

(٤) طبقات ابن سعد ٧/ ٣٣٥ .

وقال فيه الإمام الذهبي : هو إمام المؤرخين [١] .

وكذلك وصفه الإمام ابن تيمية . وقد لخص الحافظ ابن حجر العسقلاني القول في قبول أخباره بقوله : والواقدي إذا لم يخالف الأخبار الصحيحة ولاغيره من أهل المغازي فهو مقبول عند أصحابنا [٢] .

هذا ومن باب الاعتراف بالفضل لأهله فإنني اثبت أنني استفدت في الاجزاء الأولى من هذا الكتاب من التعليقات التي جاءت في هوامش الكتب التي أكثرت العزو إليها مثل صحيح مسلم وسيرة ابن هشام ومغازي الواقدي ، وقد أشرت إلى بعض ذلك في مواضعه .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤١ .

(٢) التلخيص الحبير ٢/ ٢٩١ .

حال العالم قبل الإسلام

قبل أن أتحدث عن المواقف والعبر من تاريخ الإسلام المشرق ، فإنني أحب أن أذكر نبذة موجزة عن أوضاع الجاهلية قبل الإسلام ، من باب تجلية النور بعد الظلام ، واستهداءً بما قام به جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في خطبته البليغة أمام النجاشي ، حيث بين بعض مساوىء الجاهلية ، ثم انتقل إلى بيان شيء من محاسن الإسلام ، واستهداءً بما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، من أنه لا يقدر الإسلام حق قدره إلا من عرف الجاهلية .

فالعالم قبل الإسلام كان في جاهلية جهلاء ، في كل نواحي الحياة : من الناحية الدينية والسياسية والاجتماعية والمالية وغير ذلك ، وكان القاسم المشترك بين تلك الأمم الجاهلية أنهم كانوا جميعاً لا يؤمنون بالله تعالى وحده ولا باليوم الآخر ، ولذلك بنوا كل نواحي حياتهم على عدم النظر إلى رقابة الله عز وجل ، وعدم اعتبار رضاه وسخطه ، واعتبار الحياة الدنيا وعدم النظر إلى ما بعد الموت ، وإنما اختلفوا في مناهج الاستفادة من هذه الحياة الدنيا وطريقة السير على حسب ما أنتجته عقولهم المنحرفة .

الحالة الدينية :

إذا عرفنا أن التدين يعني شعور الإنسان بافتقاره إلى قوة هي أعلى من قوته وخضوعه لها ، فإن ظاهرة التدين في تلك الجاهلية كلها منحرفة بكل أشكالها ، لأنها تدور بين مخلوق يخضع ومخلوق يُخضع له ، فقد اتفقت الجاهلية في هذه النقطة ، واختلفت في تعيين من يستحق أن يعبد وأن يخضع له ، وقد اتفق أهل الجاهلية في شرك الطاعة ، حيث أطاعوا جميعاً سادتهم وكبراءهم من دون الله تعالى واختلفوا في شرك العبادة ، حيث عبد بعضهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وعبد بعضهم الأصنام المنحوتة من الحجارة أو المصنوعة من الأشجار وغيرها ، وعبد بعضهم النار ، وعبد بعضهم البقر ، وعبد بعضهم الكواكب ، وغير ذلك ، ما عدا بقايا يسيرة من أفراد كانوا يعبدون الله تعالى ، كما قال رسول الله ﷺ عن تلك الجاهلية « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب » أخرجه الإمام مسلم من حديث عياض المجاشعي رضي الله عنه [1] .

وكان أهل الجاهلية مأسورين لخرافات وأوهام لا حقيقة لها كالتشاؤم بالطيور والأيام ، ونحوها حيث رتبوا أمورهم من حيث الإقدام أو الإحجام على ذلك ، وسيتبين لنا من الكلام على الفتوحات الإسلامية كيف تورط الأعداء بالتشاؤم الذي كان يحكم تصرفاتهم وأن ذلك كان من أسباب انتصار المسلمين عليهم .

---

(١) صحيح مسلم – كتاب الجنة رقم ٢٨٦٥ .

الحالة السياسية :

أما الحالة السياسية في الجاهلية فقد كان الحكم يقوم على تطبيق قوانين تعارف عليها أهل كل بلد ، ولا علاقة لها بالشرائع السماوية ، وهي تحمل انحرافات الفكر البشري الكثيرة وخاصة في الجنوح نحو الظلم وحماية الامتيازات التي تميز بها بعض طوائف البشر .

أما اختيار الزعماء فإنه يقوم عند العرب على اختيار سادة القبائل وشيوخها حيث لم تكن للعرب دولة ، ويعتمدون غالباً في مؤهلات الاختيار على توفر صفات الرجولة والسيادة حسب عرفهم مع اعتبار شرف النسب .

أما الدول ذات الحكومات كدولة الفرس والروم فإنها تقوم على النظام الطبقي ، حيث يكون بعض أفراد الأمة سادة وبعضهم عبيداً ، وتختلف درجات السيادة باختلاف درجات المسؤولية ، وكل طبقة تخضع للطبقة التي فوقها وتستعبد التي تحتها .

وكان بعضهم يعتقدون في أشرافهم أنهم فوق العامة في طينتهم وكان أشرافهم يتمتعون بالسلطة المطلقة التي لا يحكمها قانون إلا ما شرعه لهم آباؤهم الأولون كما هو الحال في ملوك الفرس .

وبعضهم كانوا يؤلهون أشرافهم ويعطونهم من الامتيازات ما لا حد له كما هو الحال في الهندوس الذين يؤلهون سادتهم من البراهمة .

فالجاهلية من حيث الحكم كانت تقوم في تلك الدول على مجموعة من الطغاة المستَعبدين المعتدِّين برأيهم ، وقد خلَّد تلك الحكومات مدة طويلة من الزمن ما توارثته شعوبها من اعتقاد أحقيتها المطلقة في الاستمرار في الحكم ، مهما جرى منها من الظلم والاستئثار لكونها تتميز بقداسة لا تتوفر في سائر البشر ، وقد قضى ذلك على كثير من مظاهر الحرية والإبداع في أمور الحياة .

أما قبائل العرب فقد كان الوضع فيها أفضل بكثير في هذا الجانب حيث كان لدى أفرادها حرية في إبداء الرأي وتوجيه سياسة القبيلة ، غير أنهم كانوا مأسورين بمفاهيم جاهلية لا يتجاوزونها في الغالب كتقديسهم لما ورثوه من الآباء والأجداد من العادات والأعراف وإن كان ظاهر البطلان .

الحالة الاجتماعية :

من مساوىء الجاهلية في الناحية الاجتماعية أن العلاقات بين الناس تقوم على أساس قومي ضيق ، وقد اتفق على العصبية القومية كل الناس في ذلك الزمن منذ أن انحسر تأثير دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولذلك كانت الخلافات والحروب الدائمة هي الأصل في الغالب على أبناء ذلك الزمن وخاصة عند العرب بدافع حماية القوم والاعتداء على الأقوام الآخرين ، فالإغارة على الآخرين وسلب أموالهم لا تعتبر إجراماً ، بل تعتبر نوعاً من البطولة ومفخرة قومية يسجلها الشعراء في أشعارهم والخطباء في خطبهم .

ومن الغريب في حياة العرب أن هذه الأموال التي يحصلون عليها عن طريق السلب والنهب يقدمونها ولائم لإكرام الضيوف ، حيث كان أكثر أموالهم من المواشي ، ويفتخرون بالشجاعة والجسارة في ترويع الآمنين وسلب أموالهم ، وبالكرم والسخاء في تقديم هذه الأموال لنزلائهم .

وعندما يخوضون المعارك الطاحنة من أجل هذه المبادىء التافهة فإنهم لا يعتبرون أنفسهم قد انحطوا في الرذائل ، بل يعتبرون أنفسهم في القمة من الفضيلة ، ولذلك ترى أشعارهم طافحة بالحماسة والفخر كما في قول عمير بن شييم التغلبي المعروف بالقطامي .

ومن ربط الجِحَاش فإن فينا قنا سُلباً وأفراساً حسانا

وكنَّ إذا أغرن على جَنَاب وأعوزهن نهب حيث كانا

أغرن على الضِّباب على حِلالٍ وضبة إنه من حانَ حانا

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا [1]

وكانت الحروب تقوم بينهم لأسباب تافهة ، فهم لا يبالون بشن الحروب وإزهاق الأرواح في سبيل الدفاع عن المثل الاجتماعية التي تعارفوا عليها وإن كانت لا تستحق التقدير ، وقد روى لنا التاريخ سلسلة من أيام العرب في الجاهلية مما يدل على تمكن الروح الحربية من نفوس

---

(١) ديوان الحماسة لأبي تمام ١/ ٢٠٣ .

العرب وغلبتها على التعقل والتفكير ، فمن تلك الأيام مثلا يوم البَسُوس وقد قامت الحرب فيه بين بكر وتغلب بسبب ناقة للجَرْمي وهو جار للبسوس بنت منقذ خالة جساس بن مرة ، وقد كان كليب سيد تغلب قد حمى لإبله مكاناً خاصاً به فرأى فيه هذه الناقة فرماها فجزع الجرمي وجزعت البسوس فلما رأى ذلك جساس تحين الفرصة لقتل كليب فقتله فقامت الحروب الطاحنة بين القبيلتين لمدة أربعين سنة [(١)] .

وكذلك يوم داحس والغبراء وقد كان سببه سباقاً أقيم بين داحس وهو فرس لقيس بن زهير والغبراء وهي لحذيفة بن بدر فأوعز هذا إلى رجل ليقف في الوادي فإن رأى داحساً قد سبق يرده وقد فعل ذلك فلطم الفرس حتى أوقعها فى الماء فسبقت الغبراء وحصل بعد ذلك القتل والأخذ بالثأر وقامت الحروب بين قبيلتي عبس وذبيان [(٢)] .

وكذلك الحروب التي قامت بين الأوس والخزرج في الجاهلية وهم أبناء عم حيث إن الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة الأزدي ، وكانت بدايتها حرب « سمير » وسببها أن رجلاً غطفانياً كان معه فرس فقال : ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب ، فسمى الأوس رجالاً وسمى الخزرج رجالاً ، فدفعها إلى مالك بن العجلان الخزرجي ، فافتخر بذلك حليفه كعب بن العجلان الذبياني ، وقال ألم أقل لكم إن حليفي مالكاً أفضلكم؟ فغضب من ذلك رجل من الأوس يقال له « سمير » فترصد لكعب فقتله ، فقامت الحرب بين الحيين ، وكان الظفر فيها للأوس .

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٣١٢ .

(٢) المرجع نفسه ١/ ٣٤٣ .

ثم استمرت الحروب بينهما بعد ذلك مائة سنة ، حتى كان حرب «حاطب» وهي من أشهر أيامهم وسببها أن رجلاً من بني ثعلبة نزل على حاطب بن قيس الأوسي فرآه يزيد بن الحارث الخزرجي في السوق فقال لرجل يهودي : لك ردائي إن كسعت هذا الثعلبي [1] فأخذ اليهودي الرداء وكسع الثعلبي ، فنادى الثعلبي : يا لحاطب كُسع ضيفك وفُضح ، وأخبر حاطب بذلك ، فجاءه فسأله : من كسعك فأشار إلى اليهودي ، فقتله حاطب ، فجاء يزيد بن الحارث الخزرجي فأسرع ليقتل حاطباً فقتله وقتل رجلاً آخر من قومه ، فثارت الحرب بين الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيها للخزرج ، وتبع ذلك حروب أخرى .

ثم كان آخر أيامهم « بعاث » وذلك أن حلفاء الأوس من اليهود جددوا عهودهم معهم على النصرة - وهكذا كان كثير من حروب الأوس والخزرج يذكيها اليهود حتى يضعفوا القبيلتين فتكون لهم السيادة الدائمة- واستعان كل فريق بحلفائه من القبائل المجاورة فاقتتلوا قتالاً شديداً كانت نهايته لصالح الأوس [2] .

وهكذا قامت هذه الحروب بين أبناء العم وكان المستفيد الأول يهود المدينة ، ولم تنقطع هذه الحروب إلا بعد أن هداهم الله إلى الإسلام الذي ألف الله تعالى به بين قلوبهم فأصبحوا الرافد الثاني لنصر الإسلام بعد المهاجرين وسماهم النبي ﷺ الأنصار ، وكانت لهم بعد ذلك المواقف العظيمة في نصرة الإسلام .

---

(١) يعني أن يضربه بقدمه من الخلف ، وذلك إهانة .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٤٠٢ .

١ - إشراقة النور الإلهي

(بدء الوحي)

بينما كانت البشرية تعيش في دياجير الظلمات الحالكة ، وتعاني من أنماط الحياة المهلكة ، حيث خيم عليها الطغيان البشري الضاغط والجهل العالمي الجاثم ، والاستسلام للشهوات المنحرفة من غير رادع ولا زاجر ، إذا بشعاع النور الإلهي يهبط فجأة من السماء لينير جنبات الأرض ، يحمله الروح الأمين عليه السلام فيفاجىء به سيد المرسلين ﷺ وهو في غار حراء ، قد خلا للتأمل والتعبد بعيداً عن جلبة الناس وضجيجهم .

وأن أفضل من يحدثنا عن هذا الحادث العظيم الذي تغير له وجه التاريخ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث قالت : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه المَلَكُ فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء . قال فأخذني فغطني [1] حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . قلت :

---

(١) الغط بمعنى الضغط والمقصود منه تنبيه النبي صلى الله عليه وسلم ، ولئن كانت وسائل التنبيه عند العرب تتحدد بدلالات الألفاظ كالحض والاستفهام مثل قولهم هلا أنبئك وألا أنبئك ، كما تتحدد بتغيير هيئة الجلوس ، فإن الوسائل التي استخدمها جبريل عليه السلام كانت بالضغط الشديد ثلاث مرات ، وما ذاك إلا لإشعار النبي صلى الله عليه وسلم بأن ما هو مقدم على سماعه وتبليغه أمر في غاية العظمة ، وإن تلقيه يحتاج إلى تفريغ الفكر من كل العلائق الدنيوية ليكون في غاية الاستجماع والتركيز .

ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ** ﴾ .

فرجع بها (١) رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال : زَمِّلوني زمِّلوني ، فَزَمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلَّ ، وَتكْسِبُ المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى - ابن عم خديجة - وكان امرءاً تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة : يا ابن عمٍّ اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى ، يا ليتني فيها جَذَعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجيَّ هم ؟ قال نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة

---

(١) يعني بأول سورة العلق .

أن تُوفي ، وفتر الوحي [1] .

لقد كانت الأرض كلها تعيش في ذلك الزمن في ظلمات الجاهلية ، فكانت بداية انطلاق النور الإلهي في تلك اللحظة التي خاطب بها جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ .

ولقد حل ذلك النور في قلب رسول الله ﷺ حتى تحول إلى مصباح متحرك يضيء لمن حوله ، وأصبح يراه من زالت عن عينيه الغشاوة فينجذب إليه ويترقى بهديه نحو الكمال .

لقد كان وقع نزول الوحي شديداً على رسول الله ﷺ كما هو واضح من النص بالرغم من أنه كان أشجع الناس وأقواهم قلباً كما دلت على ذلك الأحداث خلال ثلاث وعشرين سنة ، وذلك لأن الأمر ليس مخاطبة بشر لبشر ولكنه كان مخاطبة عظيم الملائكة وهو يحمل كلام الله تعالى ليستقبله من اصطفاه الله جل وعلا لحمل هذا الكلام وإبلاغه لعامة البشر .

ولقد كان موقفاً رهيباً ومسؤولية عظمى لا يقوى عليها إلا من اختاره الله تبارك وتعالى لحمل هذه الرسالة وتبليغها .

ومما يصور رهبة هذا الموقف ما جاء في هذه الرواية من قول رسول الله ﷺ « لقد خشيت على نفسي » وقول عائشة رضي الله عنها في هذا

---

(١) صحيح البخاري - كتاب بدء الوحي - رقم ٣ ، صحيح مسلم - كتاب الإيمان -رقم ١٦٠ .

الحديث « فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع » .

ومما يبين شـدة نزول الوحي على رسـول الله ﷺ ما أخرجه الإمام البخاري ومسلم رحمهما الله من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : «ولقد رأيته - تعني رسول الله ﷺ - ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه لَيَتَفَصَّدُ عرقاً »[1] .

وما أخرجه الإمام مسـلم من حديث عبـادة بن الصامـت رضي الله عنه قـال : « كـان نبي الله ﷺ إذا نزل عليـه الوحـي كُـرب لذلـك وتربَّد وجهه »[2] .

❋ ❋ ❋

---

(١) صحيح البخاري - كتاب بدء الوحي - رقم ٢ ، صحيح مسلم - الفضائل رقم ٢٣٣٣ .
(٢) صحيح مسلم ، الفضائل رقم ٢٣٣٤ .

٢ - أثر المرأة الصالحة في خدمة الدعوة

(إسلام خديجة بنت خويلد وجهودها في الدعوة)

من المعروف أن المجتمع الإسلامي مكون من الرجال والنساء ، وأنه كما أن للرجال جهوداً مشكورة في خدمة الإسلام فإن للنساء جهوداً مشكورة كذلك ، وإن كانت هذه الجهود قد تختلف في بعض أنواعها حسب اختلاف تكوين الرجال والنساء .

وأمامنا في هذه المرحلة التي يدور حولها الحديث مثل من جهود المرأة الصالحة في حياة زوجها الداعية .

فحينما أنزل الله تعالى الوحي بواسطة جبريل عليه السلام على رسول الله فوجىء به كماتقدم في خبر بدء الوحي الذي أخرجه الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها . فكان موقف خديجة رضي الله عنها عالياً في تثبيت النبي ﷺ حيث قالت : « والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » ثم في ذهابها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وعرضها الموضوع عليه رجاء أن تجد عنده ما يسري عن النبي ﷺ ويقوي قلبه .

وهكذا كان موقف خديجة رضي الله عنها الذي يدل على قوة قلبها حيث لم تفزع من سماع هذا الخبر الخارق للعادة ، ولعل ما كانت تسمعه من ابن عمها ورقة بن نوفل من انطباق صفات النبي المنتظر على محمد

ﷺ كان له الأثر الأكبر في ثباتها ويقينها حيث غاب عنها عامل المفاجأة واستقبلت الأمر بهدوء وسكينة ، ولا أدل على ذلك من ذهابها فور سماعها الخبر إلى ورقة وعرض الأمر عليه .

وقد كان ورقة ينتظر هذا الخبر بشوق بالغ ، ومن قوله في ذلك فيما رواه ابن إسحاق رحمه الله :

لججتُ وكنت في الذكرى لجوجا ... لِهَمٍّ طالما بعث النشيجا

ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظاري يا خديجا

ببطن المكَّتين [1] على رجائي ... حديثك أن أرى منه خروجا

بما خَبَّرتِنا من قول قسٍّ ... من الرهبان أكره أن يعوجا

بأن محمداً سيسود فينا ... ويخصم من يكون له حجيجا

إلى آخر الأبيات التي ذكرها [2] .

وقوله : « بما خبرتنا من قول قس » . يعني الراهب بحيرا الذي خبَّر عن انطباق ما جاء في كتب أهل الكتاب من التبشير بالنبي الخاتم على رسول الله ﷺ [3] .

---

(١) المكتين : جانبا مكة ، أو بطاحها وظواهرها .

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ١٩٤ .

(٣) وقد أخرج هذا الخبر الإمام الترمذي من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث حسن - سنن الترمذي / أبواب المناقب ، باب رقم ٤ ، وصححه الشيخ الألباني ونقل تصحيحه عن الإمام الجزري - فقه السيرة للغزالي / ٦٨ .

وقد صور ورقة هذا الموقف في أبيات من الشعر يقول فيها :

يا للرجال وصرف الدهر والقدر ... وما لشيء قضاه الله من غِيَر

حتى خديجة تدعوني لأخبرها ... وما لها بِخَفِيِّ الغيب من خبر

جاءت لتسألني عنه لأخبرها ... أمراً أراه سيأتي الناس من أخَر

فخبَّرتْني بأمر قد سمعت به ... فيما مضى من قديم الدهر والعُصُر

بأن أحمد يأتيه فيخبره ... جبريل أنك مبعوث إلى البشر

فقلت علَّ الذي ترجين ينجزه ... لك الإله فَرَجِّي الخير وانتظري

وأرسليه إلينا كي نسائله ... عن أمره ما يرى في النوم والسهر

فقال حين أتانا مَنْطِقاً عجباً ... تقفُّ منه أعالي الجلد والشعر

إني رأيت أمين الله واجهني ... في صورة أكْملت من أهيب الصور

ثم استمر [1] وكان الخوف يذعرني ... مما يسلِّم من حولي من الشجر

فقلت ظني وما أدري أيصدقني ... أن سوف تبعث تتلو مُنزَل السور

وسوف أبليك إن أعلنت دعوتهم ... من الجهاد بلا مَنٍّ ولا كدر [2]

ومن أجل هذا التصديق برسالة رسول الله ﷺ من ورقة بن نوفل ولما صدر منه من ذلك الموقف الذي ثَبَّتَ به النبي ﷺ فإنه ﷺ قد شهد له

(١) يعني استمر يعرض أمره ثم قال :

(٢) أخرجه الحاكم من طريق ابن إسحاق قال : حدثني عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن جارية الثقفي وكان واعية ، وسكت عنه الحاكم والذهبي-المستدرك٢/ ٦٠٩-٦١٠ - .

بالجنة كما جاء في رواية أخرجها الحاكم بإسناده عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين » قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبي [(١)] .

وذكر الصالحي أن البزار وابن عساكر روياه بإسناد جيد ، وقال : وروى الإمام أحمد بسند حسن عن عائشة أن خديجة رضي الله عنها سألت رسول الله ﷺ عن ورقة فقال : «قد رأيته فرأيت عليه ثياباً بيضاً ، فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض» قال : وروى أبو يعلى بسند حسن عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن ورقة بن نوفل فقال : «أبصرته في بطنان الجنة وعليه السندس»[(٢)] .

كما أن موقف خديجة من خبر الوحي يدل على سعة إدراكها حيث قارنت بين ما سمعت وواقع النبي ﷺ فأدركت أن من جُبِلَ على مكارم الأخلاق لايخزيه الله أبداً ، فقد وصفته بأنه يصل الرحم ، وكون الإنسان يصل أقاربه دليل على استعداده النفسي لبذل الخير والإحسان إلى الناس ، فإن أقارب الإنسان هم المرآة الأولى لكشف أخلاقه ، فإن نجح في احتواء أقاربه وكسبهم بماله عليهم من معروف كان حرياً به أن ينجح

---

(١) المستدرك ٢/ ٦٠٩ ، وذكره الهيثمي من رواية الطبراني ، قال : ورجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٩/ ٤١٦ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٢٤٤ ، وذكره الهيثمي من رواية أبي يعلى وقال : فيه مجالد ، وهذا مما مدح من حديث مجالد وبقية رجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٩/ ٤١٦ .

في كسب الآخرين من البشر، وإن هو أخفق مع الأقربين كان إخفاقه مع الأبعدين من باب أولى.

ووصفته ببذل المعروف والإحسان حيث قالت: «وتحمل الكَلَّ» والكل هو العاجز الذي لايستقل بأمره بنفسه بل يحتاج لمعونة غيره.

كما وصفته بالكرم النادر المثال حيث قالت: «وَتَكْسِبُ المعدوم» يعني وتعطي غيرك المال المعدوم، أي نفائس المال التي يعدَم نظيرها، والذي تسخو نفسه بنفائس المال سيعطي ما هو دون ذلك من باب أولى، وهذا من أبلغ الوصف في الكرم.

وخصَّت بالذكر إكرام الضيف وهو من الكرم لسمو من يتصف بذلك عند العرب.

ثم وصفته بالنجدة عند الشدائد حيث قالت: «وتعين على نوائب الحق» وهذه صفة من يعيش لغيره أكثر مما يعيش لنفسه وهي من أبرز صفات السادة النجباء.

وجاء في روايات أخرى عند البخاري: «وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة» وهذه تكملة لسلسلة عظيمة من مكارم الأخلاق قلما تجتمع في رجل واحد.

وفي آخر هذا الخبر موقف كريم لورقة بن نوفل رحمه الله في آخر لحظات من عمره حيث ثَبَّتَ النبي ﷺ وقوى قلبه بما أخبره به من أن الذي خاطبه هو صاحب السر الأعظم الذي يكون سفيراً بين الله تعالى وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

ومما يدل على أثر كلام ورقة في تثبيت قلب النبي ﷺ وطمأنته ما جاء في رواية أخرى أخرجها ابن إسحاق وفيها: «فرجعت - يعني خديجة رضي الله عنها - إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بما قال لها ورقة فسهَّل ذلك عليه بعض ما هو فيه من الهمِّ بما جاءه» وفي موضع آخر من الرواية: «ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله وقد زاده الله عز وجل من قول ورقة ثباتاً وخفف عنه بعض ما كان فيه من الهمِّ»[1].

ولقد كان الباعث على الاطمئنان إلى كلامه علمه السابق بكتب أهل الكتاب التي فيها وصف مفصل لرسول الله ﷺ ومبعثه.

ومما جاء في بيان مواقف خديجة رضي الله عنها في فترة ابتداء الوحي ما أخرجه ابن إسحاق قال: وحدثني إسماعيل ابن أبي حكيم مولى آل الزبير: أنه حُدِّث عن خديجة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله ﷺ: أي ابن عمّ أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم؛ قالت: فإذا جاءك فأخبرني به. فجاء جبريل عليه السلام كما كان يصنع؛ فقال رسول الله ﷺ لخديجة: يا خديجة، هذا جبريل قد جاءني، قالت: قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى، قال: فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها، قالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحول فاجلس على فخذي اليمنى، قالت: فتحول رسول الله ﷺ فجلس على فخذها اليمنى فقالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحول فاجلس في حجري، قالت: فتحول رسول الله ﷺ فجلس في

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ١/١٤٦.

حجرها، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم، قال: فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس في حجرها، ثم قالت له: هل تراه؟ قال: لا، قالت: يا ابن عم، أُثْبُت وأبْشر فوالله إنه لَمَلَكٌ وما هذا بشيطان .

قال ابن إسحاق: وقد حدَّثتُ عبدالله بن حسن هذا الحديثَ فقال: قد سمعتُ أمي فاطمة بنت حُسين تحدِّث بهذا الحديث عن خديجة، إلا أني سمعتها تقول: أدخلتْ رسولَ الله بينها وبين درْعها، فذهب عند ذلك جبريل، فقالت لرسول الله ﷺ: إن هذا لَمَلَكٌ وما هو بشيطان[1].

وهكذا تبين لنا أثر المرأة الصالحة في نجاح الدعوة، وذلك في موقف خديجة رضي الله عنها وما قامت به من تثبيت قلب النبي ﷺ وهو يواجه الوحي لأول مرة.

وفي بيان مواقفها بعد ذلك يقول محمد بن إسحاق رحمه الله: وآمنت به خديجة بنت خويلد وصدقت بما جاءه من الله ووازرته على أمره وكانت أول من آمن بالله وبرسوله وصدق بما جاء منه فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ، لايسمع شيئاً مما يكرهه من ردٍّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عليه، وتصدِّقه وتهون عليه أمر الناس، رحمها الله تعالى[2].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٤٢ . وانظر تاريخ الطبري ٢/ ٣٠٢ ، وأخرجه الطبراني وحسن الحافظ الهيثمي إسناده - مجمع الزوائد ٨/ ٢٥٦ .

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٤٥ .

لقد كانت خديجة رضي الله عنها تثبت قلب النبي ﷺ وتسكنه وتهون عليه مخالفة الناس إياه، وكان يطلعها على جلية أمره مع المجتمع الذي يدعوه ويكابد صدوده وعداءه.

ولاشك أن الزوجة الصالحة المؤهلة لحمل مثل هذه الرسالة لها دوْر عظيم في نجاح زوجها في مهمته في هذه الحياة، وبخاصة الأمور التي يعامل بها الناس، وإن الدعوة إلى الله تعالى هي أعظم أمر يتحمله البشر، فإذا وفق الداعية بزوجة صالحة ذات كفاءة فإن ذلك من أهم عوامل نجاحه مع الآخرين.

فالإنسان يقضي مع الناس جزءاً من وقته، ولكنه يقضي في بيته الجزء الأكبر، فإذا وفق بمثل هذه الزوجة فإنه يفضي إليها بما قام به من دعوة الناس وما واجهوه من لين أو عنف، واستجابة أو امتناع ويبثها همومه ويشرح لها مشكلاته، وهي بما لديها من صلاح وكفاءة إذا وضع زوجها بها هذه الثقة ستبذل كل ما في طاقتها من تفكير ومقدرة على العمل فتبدأ أولاً بتقوية قلبه وتخليصه شيئاً فشيئاً مما يعانيه من الهم والقلق، ثم تكون عوناً له على إكمال مهمته بنجاح، إلى جانب قيامها بمهمتها في الدعوة فيما يتعلق بالنساء، وقيام زوجها بتأييدها وتثبيتها وإكمال ما تحتاج إليه لنجاحها في مهمتها، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»[1].

---

(١) صحيح مسلم رقم ١٤٦٧، ص ١٠٩٠، كتاب الرضاع

وخديجة رضي الله عنها قد قامت بدور مهم في حياة النبي ﷺ، لما لها من شخصية في مجتمع قومها، ولما جبلت عليه من الكفاءة في المجالات النفسية التي تقوم على الأخلاق العالية من الرحمة والحلم والحكمة والحزم وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

والرسول ﷺ إلى جانب ما حباه الله به من الكمالات البشرية في جميع المجالات، وإلى جانب كونه قبل ذلك محفوفاً بعناية الله جل وعلا وتأييده في كل خطوة يخطوها، فإن الله تعالى وفقه بهذه الزوجة المثالية، لأنه قدوة للعالمين وخاصة الدعاة إلى الله تعالى، فقيام خديجة بذلك الدور الكبير إعلام من الله تعالى لجميع حَمَلة الدعوة الإسلامية بما يشرع لهم أن يسلكوه في هذا المجال من التأسي برسول الله ﷺ حتى يتحقق لهم بلوغ المقاصد العالية التي يهدفون إليها.

ولقد كان رسول الله ﷺ مثالاً عالياً للوفاء ورد الجميل لأهله، فقد كان يعامل خديجة رضي الله عنها بغاية الإكرام والتقدير حال حياتها، وظل يذكرها ويثني عليها بعد وفاتها، كما أخرج الإمام البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خير نسائها مريم، وخير نسائها خديجة»[1]. وبشرها ﷺ ببيت في الجنة حال حياتها، وأبلغها سلام الله جل وعلا وسلام جبريل عليه السلام كما أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام -أو طعام أو

---

(١) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، رقم ٣٨١٥ (٧/ ١٣٣). ، صحيح مسلم ١٨٨٦ رقم ٢٤٣٠، كتاب فضائل الصحابة.

شراب - فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها عز وجل ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب[١] لاصخب فيه ولا نصب[٢].

وتذكر عائشة رضي الله عنها وفاء النبي ﷺ لخديجة بعد وفاتها بقولها: «ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول: إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد»[٣].

بل إنه أظهر البشاشة والسرور لأخت خديجة لما استأذَنتْ عليه لتَذكُّره خديجة كما أخرج الإمام مسلم من حديث عائشة قالت: استأذَنتْ هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة[٤] فارتاح لذلك وقال: اللهم هالة بنت خويلد، فغرت فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين[٥] هلكت في الدهر فأبدلك الله خيراً منها»[٦]. وأخرجه الإمام أحمد بنحوه من غير ذكر هالة بنت خويلد وزاد: فتَمعَّر وجهه تمعراً ما كنت أراه إلا عند نزول

---

(١) يعني من لؤلؤ أو ذهب.
(٢) صحيح مسلم ١٨٨٧ رقم ٢٤٣٢، كتاب فضائل الصحابة.
(٣) صحيح البخاري رقم ٣٨١٨، كتاب مناقب الأنصار (٧/ ١٣٢).
(٤) يعني لتشابه صوتيهما.
(٥) يعني لا أسنان لها من الكبر.
(٦) صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة رقم ٢٤٣٧ ص ١٨٨٩.

الوحي أو عند المَخِيلة[1] حتى ينظر أرحمة أم عذاب[2].

وذكره الحافظ ابن كثير وقال: تفرد به أحمد وهذا إسناده جيد[3].

وهذا يصور مقدار غضب رسول الله ﷺ لخديجة وحفظه حقها رضي الله عنها.

ونجد أن النبي ﷺ يظهر الحفاوة بامرأة كانت تأتيهم زمن خديجة ويبين أن حفظ العهد من الإيمان، وقد أخرج خبر ذلك الحاكم من طريق ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي فقال لها رسول الله ﷺ: من أنت؟ قالت: أنا جثامة المزنية، فقال: بل أنت حسانة المزنية، كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟ قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت قلت: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: إنها كانت تأتينا زمن خديجة وإن حسن العهد من الإيمان.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين فقد اتفقا على الاحتجاج برواته في أحاديث كثيرة وليس له علة، وأقره الذهبي[4].

إن هذه الأخبار تعتبر أمثلة مهمة في الدفاع عن أهل الفضل والتقدم في حال غيبتهم، فالمسلم يُحفظ له حقه في حال حضوره وغيبته، وفي

---

(١) يعني السحاب.

(٢) مسند أحمد ٦/ ١٥٠.

(٣) البداية والنهاية ٣/ ١٢٦. وذكر نحوه الهيثمي عن الإمام أحمد والطبراني بعدة أسانيد وحسنها - مجمع الزوائد ٩/ ٢٢٤.

(٤) المستدرك ١/ ١٥-١٦.

حال حياته وموته، لأن الحفاظ على ذلك ليس مبعثه محاسبةَ صاحب الحق، وإنما مبعثه رقابة الله عز وجل في حقوق المسلمين أولاً، ثم الوفاء لأصحاب المواقف العالية في بذل النفس والمال من أجل إعلاء كلمة الله تعالى ونصرة المسلمين.

وفي وصف عائشة رضي الله عنها غضب النبي ﷺ بالشدة دليل على أن الغضب يكون محموداً إذا انتهكت حرمات الله تعالى أو حرمات المسلمين، مع امتلاك النفس بحيث يتصرف المسلم بالحكمة، أما عدم الغضب والحالة هذه فإنه دليل على ضعف الإيمان، وعلى قدر الإيمان يكون التأثر والغضب فيما يتعلق بأمور الدين، بخلاف أمور الدنيا فإن الأمر يكون بضد ذلك.

هذا ومن مناقب خديجة رضي الله عنها أنها أول من آمن برسول الله ﷺ على الإطلاق، وهي أول من صلى معه.

قال ابن إسحاق: وحدّثني بعض أهل العلم: أن الصلاة - حين افترضت على رسول الله ﷺ - أتاه جبريل وهو بأعلى مكة، فهمز له بعَقبه في ناحية الوادي، فانفجرت منه عين، فتوضأ جبريل عليه السلام، ورسول الله ﷺ ينظر إليه ليُريه كيف الطُّهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل توضأ ثم قام به جبريل فصلى به وصلى رسول الله ﷺ بصلاته، ثم انصرف جبريل عليه السلام.

فجاء رسول الله ﷺ خديجة، فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله عليه الصلاة والسلام، ثم صلى بها رسول الله ﷺ كما صلى به جبريل، فصلت بصلاته[1].



(١) سيرة إبن هشام ١/ ٢٤٨، وأخرجه الحافظ البيهقي من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق، وذكر نحوه - دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٦٠.

٣ - أول من أسلم

ذكرنا أن أول من أسلم على الإطلاق وآمن برسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

ثم أسلم عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، كما أخرج ابن هشام من طريق البكائي قال: قال ابن إسحاق: ثم كان أوّل ذَكَرٍ من الناس آمن برسول الله ﷺ معه، وصدَّق بما جاءه من الله تعالى، عليٌّ بن أبي طالب ابن عبدالمطلب بن هاشم، رضوان الله وسلامه عليه: وهو يومئذ ابن عشر سنين.

وكان مما أنعم الله به على عَليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان في حِجْر رسول الله ﷺ قبل الإسلام.

قال ابن إسحاق: وحدَّثني عبدالله بن أبي نجيح عن مجاهد بن جبر أبي الحجاج قال: كان من نعمة الله على عَليٍّ بن أبي طالب، ومما صنع الله له، وأراده به من الخير، أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه، وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فَلْنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفُلُهُما، فقال العبّاس: نعم. فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما عَقِيلاً فاصنعا ما

شئتما – قال ابن هشام: ويقال: عقيلاً وطالباً.

فأخذ رسول الله ﷺ علياً فضمه إليه، وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه، فلم يزل علي مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبياً؛ فاتبعه علي رضي الله عنه؛ وآمن به وصدّقه، ولم يزل جعفر عند العبّاس حتى أسلم واستغنى عنه[١].

قال ابن إسحاق: وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا.

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوما وهما يصليان؛ فقال لرسول الله ﷺ: يابن أخي! ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال: أي عمّ. هذا دين الله، ودين ملائكته ودين رسله، ودين أبينا إبراهيم – أو كما قال رسول الله ﷺ – بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أي عم، أحق مَنْ بذلتُ له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحقّ مَنْ أجابني إليه وأعانني عليه – أو كما قال – فقال أبو طالب: أي ابن أخي. إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يُخْلَص إليك بشيء تكرهه ما بقيتُ.

وذكروا أنه قال لعلي: أي بني، ما هذا الدين الذي أنت عليه؟

---

(١) وأخرج هذا الجزء من الخبر الحاكم في المستدرك ٣/ ٥٧٦.

فقال : يا أبت ، آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقته بما جاء به ، وصليت معه لله ، واتبعته ، فزعموا أنه قال له : أما إنه لم يْدعُك إلا إلى خير ، فالزمه[1] .

وأخرجه الطبري من طريق سلمة بن الفضل الأبرش عن ابن إسحاق وذكر مثله[2] .

ولاشك أن دخول علي بن أبي طالب - على صغر سنه - في الإسلام الذي لم يكن يمثله إلا رسول الله ﷺ وخديجة ، ومخالفته دين أبيه وأعمامه يعتبر موقفاً جليلاً .

ثم دخل في الإسلام زيد بن حارثة رضي الله عنه .

قال ابن إسحاق : ثم أسلم زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبدالعزى بن امرئ القيس الكلبي ، مولى رسول الله ﷺ ، وكان أول ذكرٍ أسلم بعد علي بن أبي طالب .

ثم ذكر ابن هشام خبر استرقاقه ومصيره إلى رسول الله ﷺ وإعتاقه وتبنيه إياه ، وذلك قبل أن يوحى إليه[3] .

فهؤلاء الثلاثة خديجة وعلي وزيد هم أول من أسلم وكلهم كانوا في بيت النبي ﷺ ، أما أول من أسلم خارج بيت النبي ﷺ فهو أبو بكر رضي

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٥٠ .
(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٣١٣ .
(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٢٥٢ .

الله عنه كما سيأتي، وعلى ذلك يحمل ما جاء من الأخبار عنه بأنه أول من أسلم، وذلك كالخبر الذي أخرجه الحاكم من حديث الشعبي قال: سألت ابن عباس - أو سئل - : من أول من أسلم؟ فقال: أما سمعت قول حسان رضي الله عنه:

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البرية أتقاها وأعدلها ... بعد النبي وأوفاها بما حملا

الثاني التالي المحمود مشهده ... وأول الناس منهم صدق الرسلا[1]

* * *

(١) المستدرك ٣/ ٦٤ وسكت عنه الحاكم والذهبي.

٤ - إسلام أبي بكر واهتمامه بالدعوة

أسلم أبو بكر رضي الله عنه بدعوة من النبي ﷺ في أوائل المرحلة السرية.

قال ابن إسحاق بعدما ذكر إسلام خديجة وعلي وزيد رضي الله عنهم: ثم أسلم أبو بكر بن أبي قحافة.

قال: وكان رسول الله ﷺ يقول - فيما بلغني - : «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكَم حين ذكرته له وما تردد فيه».

وقوله «كبوة» أي امتناع، و «عكم» أي تلبث[1].

وبعد أن أسلم أبو بكر دعا إلى الله في هذه المرحلة الحرجة، حتى أسلم على يده شباب كان لهم دور كبير في مستقبل الجهاد والدعوة.

وقد ذكر محمد بن إسحاق رحمه الله شيئاً من مآثره في الدعوة حيث قال: فلما أسلم أبو بكر رضي الله عنه أظهر إسلامه - يعني لخاصة من يثق به - ودعا إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، وكان أبو بكر رجلاً مؤلفاً لقومه محبباً سهلاً وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير أو شر، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن

---

(١) سيرة إبن هشام ١/ ٢٥٥.

مجالسته، فجعل يدعو إلى الله تعالى وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه.

ثم ذكر الخمسة الذين أسلموا على يديه في أول الإسلام، وهم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيدالله رضي الله عنهم.

قال: فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلوا[1].

هذا النص يبين لنا شيئاً من مآثر أبي بكر رضي الله عنه في الدعوة إلى الإسلام، فهؤلاء الخمسة المذكورون الذين أسلموا على يديه كلهم أصبحوا من المبشرين بالجنة، ومن أكابر أهل الحل والعقد في الإسلام وهم إضافة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه كانوا أهل الشورى الذين جعل عمر رضي الله عنه الخلافة فيهم.

فكم هي فضائل أبي بكر رضي الله عنه، وكم هي سوابقه على المسلمين! إنه لم يكتف بأنه غامر بنفسه فاتبع ديناً لا يمثله خارج بيت النبي ﷺ أحد، وفي ذلك ما فيه من المغامرة، بل صار يدعو من يثق بهم سراً إلى اتباع هذا الدين الجديد، فاستجاب له هؤلاء الفحول الذين صار لهم في مستقبل الإسلام شأن كبير.

ولا شك أن الذين أسلموا واتبعوا النبي ﷺ وهو وحيد ليس معه أحد أو معه النفر اليسير.. لاشك أن لهم مكانة وفضلاً كبيراً في الإسلام، فإن الإقدام على دين جديد يهدم الأديان السائدة في المجتمع

(١) سيرة إبن هشام ١/ ٢٥٤.

أمر له خطورته، وهؤلاء الذين أقدموا على الإسلام آنذاك يدركون خطر ما توجهوا إليه، لذلك أمرهم النبي ﷺ بكتمان دعوتهم، وظلوا يدعون إلى الله تعالى سراً حتى أذن لهم النبي ﷺ بإعلان الدعوة بعد ثلاث سنوات من البعثة.

وإن استمرار هؤلاء الصحابة على دعوتهم السرية ومقدرتهم على كتمانها طيلة هذه المدة أمر يستحق الإشادة والتقدير، والدراسة والتأمل، خاصة مع ملاحظة عيشهم في مجتمع صغير بالقياس إلى حياة المدن في العصر الحاضر، فكم هي الإحراجات التي مروا بها مع أهاليهم وقومهم! وكيف استطاعوا التخلص منها!.

إن كتمان الدعوة يحصر انتشارها بلا شك، وكان هذا واقعاً اضطرارياً تمليه هيمنة الباطل، ولكنه مع ذلك يصنع رجالاً كاملين في مواهبهم وقدراتهم، لأنهم يحسون من أول خطوة في الطريق أنهم يواجهون معركة بعيدة المدى، فيخرجهم هذا الشعور من حياة الدعة والسكون التي قد تعطل بعض المواهب والقدرات، وهكذا تمت تربية أولئك العظماء في تلك الفترة.

وفي قوله عن أبي بكر: «وكان رجال من قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته» إشارة إلى عامل مهم من عوامل نجاح الداعية، وهو أن يكون متعدد المواهب، له مشاركة في عدد من الجوانب التي تربطه بالمجتمع، فيأتي إليه في كل جانب طائفة من الناس، فإذا توفر لديه مع ذلك الدافع القوي الذي يجعله يبذل كل طاقته

في سبيل دعوته فإنه يعمل عمل عدد من الناس، وينجح في اجتذاب الكثير منهم.

هذا وقد بذل أبو بكر ماله في سبيل خدمة الدعوة الإسلامية، كما جاء في خبر ذكره الحافظ ابن حجر عن يعقوب بن سفيان بإسناده عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: أسلم أبو بكر وله أربعون ألفاً فأنفقها في سبيل الله . . . » ثم ذكر المماليك السبعة الذين اعتقهم[1].



(١) الإصابة ٢/ ٣٣٤.

٥ - دعوة بني عبدالمطلب

(وموقف لعلي رضي الله عنه)

أخرج الإمام أحمد بإسناده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: جمع رسول الله ﷺ، أو دعا رسول الله ﷺ بني عبدالمطلب، فيهم رهط كلهم يأكل الجذعة ويشرب الفَرَق[١] !.

قال فصنع له مُداً من طعام، فأكلوا حتى شبعوا، قال: وبقي الطعام كما هو كأنه لم يُمسَّ، ثم دعا بِغَمْر[٢]، فشربوا حتى رَوُوا، وبقي الشراب كأنه لم يمس، - أو لم يشرب- فقال: يا بني عبدالمطلب، إني بعثت لكم خاصة وإلى الناس بعامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيُّكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ؟ قال: فلم يقم إليه أحد، قال فقمت إليه وكنت أصغر القوم، قال: فقال: اجلسْ قال: ثلاث مرات، كل ذلك أقوم إليه فيقول لي اجلس، حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي[٣].

---

(١) الجذعة الشاة الصغيرة، والفرق بفتح الراء مكيال بتسع لستة عشر رطلاً، وقوله « كلهم » أي كل واحد منهم.

(٢) يعني بشراب كثير.

(٣) مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر ٢/ رقم ١٣٧١، وقال أحمد شاكر رحمه الله: إسناده صحيح.
وذكره الإمام الهيثمي من رواية الإمام أحمد وقال: رجاله ثقات - مجمع الزوائد ٨/ ٣٠٢.

وهكذا بدأ النبي ﷺ بعشيرته الأقربين فدعاهم إلى الإسلام وحماية دعوته فلم يستجب منهم غير علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالرغم من مشاهدتهم تلك المعجزة الظاهرة من تكثير الطعام والشراب وبقائه بعد أكلهم وشربهم وكأنه لم يمس، مع أن فيهم - كما في الرواية - من اشتهروا بكثرة الأكل والشرب.

لقد اجتمع في ذلك الموقف أكابر بني عبدالمطلب ومع رهبة الموقف فإن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أبدى استعداده ثلاث مرات لبيعة النبي ﷺ رغم صغر سنه وهذا دليل واضح على قوة إيمانه وشجاعته المبكرة التي أصبحت فيما بعد مضرب الأمثال.

* * *

٦ – مثل من ثبات الصحابة على دينهم واعتزازهم به

(خبر سعد بن أبي وقاص وأصحابه)

قال ابن إسحاق: وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلّوا ذهبوا في الشعاب فاستَخْفَوْا بصلاتهم، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلَحْيِ بعير فشجّه، فكان أولَ دم هُريق في الإسلام[1].

هذا الخبر يدل على مقدار ما واجهه الصحابة رضي الله عنهم في مبدأ الإسلام من محاصرة المشركين ومتابعتهم إياهم حتى اضطروهم إلى الاستخفاء بصلاتهم في الشعاب النائية، ومع ذلك وصل إليهم المشركون فناكروهم وعابوهم وقاتلوهم.

إن محافظة هؤلاء الصحابة على دينهم وحماسهم في الدعوة إليه مع ذلك الاضطهاد الشديد من أعدائهم دليل على قوة إيمانهم وهو موقف جليل يكتب في سجلهم الحافل بالمواقف العالية.

وهكذا رأينا هؤلاء العظماء الأبطال قد اضطروا إلى الاستخفاء بأبرز شعائر دينهم وهي الصلاة، فأصبحوا يقيمونها في الشعاب والأودية خوفا من سخرية المشركين وبطشهم، ومع ذلك لم يتركوا الصلاة،

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٦١، وتاريخ الإسلام للذهبي ١/ ١٤٧.

فكيف بالمسلمين الذي أقيمت لهم المساجد العامرة بالمصلين المزودة بكل وسائل الراحة والنشاط ومع ذلك يهجرها طائفة من المسلمين زهداً فيها وإيثاراً لمتاع الدنيا ولهوها ؟! .

إنه أمر منكر عجيب يدل على البون الشاسع بين مستوى إيمان الصحابة رضي الله عنهم وإيمان من جاء بعدهم والتفوق الواضح للصحابة في مجال الفهم والتطبيق .

كما أن هذا النص يدلنا على مستوى العزة التي ارتفع إليها المسلمون آنذاك بالرغم من ضعفهم وقلتهم حيث قام أولئك النفر بمدافعة من داهمهم من المشركين ولم يستخذوا لهم وفي ذلك إعزاز ظاهر للإسلام وتثبيت لوجوده في الأرض .



٧ - مثل من تواضع النبي ﷺ

(إسلام عبدالله بن مسعود)

لم يقتصر منهج رسول الله ﷺ الحكيم المشتمل على اللطف والتودد على الأكابر وزعماء القبائل، بل نجده يعامل بهذا المنهج الغلمان الضعفاء.

ومن أمثلة ذلك ما أخرجه الإمام أحمد بإسناده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كنت أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط، فمرَّ بي رسول الله ﷺ وأبو بكر فقال: يا غلام هل من لبن؟ قلت: نعم ولكني مؤتمن، قال: فهل من شاة لم ينز عليها الفحل؟ فأتيته بشاة فمسح ضرعها فنزل لبن فحلبه في إناء فشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: اقلص، فقلص قال: ثم أتيته بعد هذا فقلت: يا رسول الله علمني من هذا القول، قال: فمسح رأسي وقال: يرحمك الله فإنك غليم معلم»[١].

فالرسول ﷺ لم يحتقر هذا الغلام الذي لم يكن ينتمي لقبيلة قريش

---

(١) وقد ذكر الحافظ الهيثمي هذا الخبر من رواية الإمام أحمد وأبي يعلي، وقال: ورجالهما رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٦/ ١٧ .
وهكذا رواه أبو داود الطيالسي رحمه الله تعالى بإسناده عن ابن مسعود رضي الله عنه، وذكر مثله .
وذكره الحافظ ابن كثير والحافظ الذهبي، وصحح الذهبي إسناده - البداية والنهاية ٣/ ٣٢ ، سير أعلام النبلاء ١/ ٤٦٥ .

وليس له عشيرة بمكة ، بل اهتم به وقدر ما يتمتع به من خلق الأمانة الذي يدل على أنه عنصر زكي ، فأثنى عليه بالعلم والفهم وأقرأه القرآن حتى أصبح بعد ذلك من قراء الصحابة وفقهائهم .



٨ - مثل من الثبات على الشدائد

(إسلام خالد بن سعيد بن العاص)

أخرج الإمام البيهقي بإسناده عن محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان قال: كان إسلام خالد - يعني ابن سعيد بن العاص - قديماً، وكان أول أخوته أسلم، وكان بدء إسلامه أنه رأى في النوم أنه وُقف به على شفير النار، فذكر من سعتها ما الله أعلم به، ويرى في النوم كأن أباه يدفعه فيها، ويرى رسول الله ﷺ أخذ بحقويه لايقع، ففزع من نومه فقال: أحلف بالله إن هذه لرؤيا حق.

فلقي أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه فذكر ذلك له فقال أبو بكر: أريد بك خير، هذا رسول الله ﷺ فاتبعه، فإنك ستتبعه وتدخل معه في الإسلام، والإسلام يحجزك أن تدخل فيها وأبوك واقع فيها.

فلقي رسول الله ﷺ وهو بأجياد فقال: يا محمد إلام تدعو ؟ فقال: أدعو إلى الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لايسمع ولايبصر ولا ينفع ولا يدري من عبده ممن لم يعبده.

فقال خالد: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فسُرَّ رسول الله ﷺ بإسلامه، وتغيب خالد، وعلم أبوه بإسلامه فأرسل في طلبه، فأتي به فأنَّبه وضربه بمقرعة في يده حتى كسرها على رأسه،

وقال: والله لأمنعنك من القوت، فقال خالد: إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به، وانصرف إلى رسول الله ﷺ فكان يلزمه ويكون معه[1].

وهكذا هدى الله تعالى خالد بن سعيد بن العاص بتلك الرؤيا المباركة، فأخرجه بها من ظلمات الشرك إلى أنوار التوحيد، وكان يقينه بالإسلام قوياً حيث لم يتزعزع إيمانه لما وبخه أبوه وضربه وهدده بقطع رزقه مع أن أباه كان من سادة أهل مكة الكبار، بل أعلن خالد استغناءه عن أبيه واعتماده الكامل على الله تعالى وحده، وثبت رضي الله عنه على حياة الفقر لأنه أحس بأن الإسلام هو سعادة الروح، وأيقن بأن الحياة الدنيا لاتساوي شيئاً أمام الآخرة، فلتكن الدنيا كما يريد الكفار المتسلطون حياة بؤس وفاقة على المسلمين فإن الموازين ستتبدل في الآخرة فيصبح المسلمون هم أصحاب الحياة السعيدة الخالدة، وقد تتبدل في الدنيا حينما ينتصر المسلمون وتكون لهم الدولة والهيمنة في الأرض.

❋ ❋ ❋

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٧٢، وأخرجه أبو عبد الله الحاكم من هذا الطريق وذكر مثله - المستدرك ٣/ ٢٤٨.

وذكره الحافظ ابن كثير من رواية البيهقي بإسناده - البداية والنهاية ٣/ ٢٤٨.

٩ - موقفان لرسول الله ﷺ في العفة والقناعة

أخرج الإمام الطبراني بإسناده عن معاوية بن أبي سفيان عن أبيه قال : خرجت أنا وأمية بن أبي الصلت الثقفي تجاراً إلى الشام فكلما نزلنا منزلاً أخذ أمية سفْراً له يقرؤه علينا فكنا كذلك حتى نزلنا قرية من قرى النصارى فجاؤوه وأكرموه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيوتهم ثم رجع في وسط النهار فطرح ثوبيه وأخذ ثوبين له أسودين فلبسهما وقال لي : هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء النصارى إليه يتناهى علم الكتاب تسأله ؟ .

قلت : لا إرْبَ لي فيه والله لئن حدثني بما أحب لا أثق به ولئن حدثني بما أكره لأجدن منه . قال فذهب وخالفه شيخ من النصارى فدخل عليَّ فقال : ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ ؟ ، قلت : لست على دينه ، قال : وإنْ فإنك تسمع منه عجباً وتراه . ثم قال لي : أثقفي أنت ؟ قلت : لا ولكن قرشي . . . قال : فما يمنعك من الشيخ فوالله إنه ليحبكم ويوصي بكم .

قال : فخرج من عندنا ومكث أمية عندهم حتى جاءنا بعد هدأة الليل فطرح ثوبيه ثم انجدل على فراشه فوالله ما نام ولا قام حتى أصبح كئيباً حزيناً ساقطاً غبُوقه على صَبُوحه[١] ما يكلمنا ولا نكلمه . ثم قال : ألا

---

(١) هذا كناية عن اضطراب فكره ، والغبوق بفتح الغين هو العشاء ، والصبوح بفتح الصاد هو الغداء من اللبن .

نرحل ؟ قلت : وهل بك من رحيل؟ قال : نعم .

فرحلنا فسرنا بذلك ليلتين ثم قال في الليلة الثالثة : ألا تحدث يا أبا سفيان ؟ قلت : وهل بك من حديث ؟ والله ما رأيت مثل الذي رجعت به من عند صاحبك ، قال : أما إن ذلك لشيء لستَ فيه إنما ذلك لشيء وجلت منه من منقلبي ، قلت : وهل لك من منقلب ؟ قال : إي والله لأموتن ثم لأحيين ، قال : قلت : هل أنت قابل أمَا نِي ؟ قال : على ماذا ؟ قلت : على أنك لا تبعث ولا تحاسب ، قال : فضحك ثم قال : والله يا أبا سفيان لنبعثنَّ وليدخلنَّ فريق الجنة وفريق النار . قلت : ففي أيهما أنت أخبرك صاحبك ؟ ، قال : لاعلم لصاحبي بذلك لافيّ ولافي نفسه .

قال : فكنا في ذلك ليلتين يعجب مني وأضحك منه حتى قدمنا غوطة دمشق فبعنا متاعنا وأقمنا بها شهرين فارتحلنا حتى نزلنا قرية من قرى النصارى فلما رأوه جاءوه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيعتهم[1] ، فما جاء إلا بعد منتصف النهار فلبس ثوبيه وذهب إليهم حتى جاء بعد هدأة من الليل فطرح ثوبيه ورمى بنفسه على فراشه فوالله ما نام ولا قام وأصبح حزيناً كئيباً لايكلمنا ولا نكلمه .

ثم قال : ألا نرحل ؟ قلت : بلى إن شئت ، فرحلنا كذلك من بثه وحزنه ليالي . ثم قال لي : يا أبا سفيان هل لك في المسير لنتقدم أصحابنا؟ قلت : هل لك فيه ؟ قال : نعم ! فسرنا حتى برزنا من أصحابنا ساعة ثم قال : هيه صخر[2] ، فقلت : ما تشاء ؟ قال : حدثني عن عتبة بن

---

(١) يعني مكان عبادتهم .

(٢) يعني حدثني يا صخر وهواسم أبي سفيان .

ربيعة أيجتنب المظالم والمحارم ؟ قلت : إي والله ، قال : ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟ قلت : إي والله ! قال : وكريم الطرفين[1] وسط في العشيرة؟ قلت : نعم ! قال : فهل تعلم قرشياً أشرف منه ؟ قلت : والله لا أعلم ، قال : أمحوج هو ؟ قلت : لا بل هو ذو مال كثير ، قال : وكم أتى عليه من السن ؟ فقلت : قد زاد على المائة ، قال : فالشرف والسن والمال أزرين به ، قلت : ولم ذاك يزري به ولا والله بل يزيده خيراً ؟ قال : هو ذاك . هل لك في المبيت ؟ قلت : لي فيه ، قال : فاضطجعنا حتى مر الثقل[2] .

قال : فسرنا حتى نزلنا في المنزل وبتنا به ثم ارتحلنا منه فلما كان الليل قال لي : يا أبا سفيان ، قلت : ما تشاء ؟ قال : هل لك في مثل البارحة ؟ قلت : هل لك فيه ؟ قال : نعم ، فسرنا على ناقتين بُختيتين[3] حتى إذا برزنا قال : هيه صخر ، هيه عن عتبة بن ربيعة ، قال : قلت : هيهاً فيه[4] قال : أيجتنب المحارم والمظالم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟ قلت : إي والله إنه ليفعل ، قال : وذو مال ؟ قلت : وذو مال ، قال : أتعلم قرشياً أسود منه ؟ قلت : لا والله ما أعلم ، قال : كم أتى له من السن ؟ قلت : قد زاد على المائة ، قال : فإن السن والشرف والمال أزرين به ، قلت : كلا والله ما أزرى به ذلك وأنت قائل شيئاً فقله .

قال : لا ، تذكَّرْ حديثي ، يأتي منه ما هو آت ، ثم قال : فإن الذي

---

(١) يعني شريف النسب من جهة أجداده وأخواله .

(٢) يعني بقية القافلة .

(٣) ناقة بختية : ناقة خراسانية .

(٤) يعني كف عن الحديث عنه .

رأيت أصابني أني جئت هذا العالم فسألته عن أشياء ثم قلت : أخبرني عن هذا النبي الذي ينتظر ، قال : هو رجل من العرب ، قلت : قد علمت أنه من العرب فمن أي العرب هو ؟ قال : من أهل بيت تحجه العرب قلت : وفينا بيت تحجه العرب ، قال : هو من إخوانكم من قريش ، فأصابني والله شيء ما أصابني مثله قط وخرج من يدي فوز الدنيا والآخرة وكنت أرجو أن أكون إياه .

قلت : فإذا كان ما كان فصفه لي ، قال : رجل شاب حين دخل في الكهولة ، بدء أمره يجتنب المظالم[1] والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها وهو محوج كريم الطرفين متوسط في العشيرة أكثر جنده من الملائكة قلت : وما آية ذلك ؟ قال : قد رجفت الشام منذ هلك عيسى ابن مريم عليه السلام ثمانين رجفة كلها فيها مصيبة وبقيت رجفة عامة فيها مصائب .

قال أبو سفيان : فقلت : هذا والله الباطل لئن بعث الله رسولاً لايأخذه إلا مسناً شريفاً . قال أمية : والذي حلفت به إن هذا لهكذا يا أبا سفيان ، تقول : إن قول النصراني حق ! هل لك في المبيت ؟ قلت ، نعم لي فيه .

قال : فبتنا حتى جاءنا الثقل ، ثم خرجنا حتى إذا كان بيننا وبين مكة مرحلتان أو ليلتان أدركنا راكب من خلفنا فسألناه فإذا هو يقول : أصابت أهل الشام بعدكم رجفة دمرت أهلها وأصابتهم فيها مصائب عظيمة .

---

(١) يعني ابتداء أمره أنه يجتنب المظالم .

قال أبو سفيان: فأقبل عليَّ أمية فقال: كيف ترى قول النصراني يا أبا سفيان ؟ قلت: أرى وأظن والله إن ما حدثك به صاحبك حق.

قال أبو سفيان: فقدمنا مكة فقضيت ما كان معي ثم انطلقت حتى جئت اليمن تاجراً فكنت بها خمسة أشهر ثم قدمت مكة فبينا أنا في منزلي جاءني الناس يسلمون عليَّ ويسألون عن بضائعهم حتى جاءني محمد بن عبدالله وهند عندي تلاعب صبيانها فسلم علي ورحب بي وسألني عن سفري ومقامي ولم يسألني عن بضاعته ثم قام.

فقلت لهند: والله إن هذا ليعجبني ما من أحد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سألني عنها وما سألني هذا عن بضاعته، فقالت لي هند: أو ما علمت شأنه ؟ فقلت وأنا فزع: ما شأنه ؟ قالت: يزعم أنه رسول الله فوقذَتْني[1] وتذكرت قول النصراني فرجفت حتى قالت لي هند: مالك ؟ فانتبهت فقلت: إن هذا لهو الباطل لهو أعقل من أن يقول هذا، قالت: بلى والله إنه ليقولن ذلك ويدعو إليه وإن له لصحابة على دينه، قلت: هذا هو الباطل.

قال: وخرجت فبينا أنا أطوف بالبيت إذ بي قد لقيته فقلت له إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا وكان فيها خير فأرسل من يأخذها ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومي، فأبى عليّ، وقال: إذاً لا آخذها، قلت: فأرسل فخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومي فأرسل إلى بضاعته فأخذها وأخذت منه ما كنت آخذ من غيره.

---

(١) يعني كسرت نفسي وأحزنتني.

قال أبو سفيان: فلم أنشب أن خرجت إلى اليمن ثم قدمت الطائف فنزلت على أمية بن أبي الصلت فقال لي: يا أبا سفيان. قلت: ما تشاء؟ قال: هل تذكر قول النصراني؟ فقلت أذكره وقد كان، فقال: ومن؟ قلت: محمد بن عبدالله، قال: ابن عبدالمطلب؟ قلت: ابن عبدالمطلب، ثم قصصت عليه خبر هند، قال: فالله يعلم، وأخذ يتصبب عرقاً، ثم قال: والله يا أبا سفيان لعله، إن صفته لهي ولئن ظهر وأنا حي لأطلبن من الله عز وجل في نصره عذراً.

قال: ومضيت إلى اليمن فلم أنشب أن جاءني هنالك استهلاله[1] وأقبلت حتى نزلت على أمية بن أبي الصلت بالطائف فقلت: يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته، فقال: قد كان لعمري، قلت: فأين أنت منه يا أبا عثمان؟ فقال: والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبداً.

قال أبو سفيان: وأقبلت إلى مكة فوالله ما أنا ببعيد حتى جئت مكة فوجدت أصحابه يضربون ويحقرون، قال أبو سفيان: فجعلت أقول فأين جنده من الملائكة، قال: فدخلني ما يدخل الناس من النفاسة[2].

ذكره الحافظ ابن كثير وقال: وقد رواه الحافظ البيهقي في كتاب الدلائل من حديث إسماعيل بن طريح به ولكن سياق الطبراني الذي أوردناه أتم وأطول والله أعلم.

---

(١) أي ظهور دعوته.

(٢) النفاسة: التفاخر.

ثم ذكر الحافظ ابن كثير رواية أخرى للطبراني من حديث أبي سفيان وفيها أنه قال لأمية: وخرجت في ركب من قريش أريد اليمن في تجارة فمررت بأمية فقلت كالمستهزئ به: يا أمية قد خرج النبي الذي كنت تنعته، قال: أما إنه حق فاتبعه، قلت: ما يمنعك من اتباعه؟ قال: ما يمنعني إلا الاستحياء من نساء ثقيف إني كنت أحدثهن أني هو ثم يرينني تابعاً لغلام من بني عبدمناف!.

ثم قال أمية: كأني بك يا أبا سفيان قد خالفته ثم قد رُبطت كما يربط الجَدْي حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد[1].

وبعد.. فهذا خبر عجيب فيه مواقف عالية لرسول الله ﷺ، كما أنه يشتمل على دلائل واضحات من علامات النبوة.

فمن ذلك ما جاء في هذه الرواية من أنه جاء لزيارة أبي سفيان والسؤال عن حاله بعد السفر ولم يسأله عن بضاعته كما سأله غيره، حتى أثار عجب أبي سفيان منه.

وهكذا فإن رسول الله ﷺ لايجعل ماله أكبر همه لأن له هماً أكبر وأعظم من ذلك بكثير.. إنه يحمل هم تبليغ رسالة ربه جل وعلا وهداية الناس الحيارى والضالين إلى الصراط المستقيم، ثم المال إن وجد يكون مسخراً لخدمة هذا الهدف ولإعفاف النفس والأسرة والإحسان إلى المحتاجين.

---

(١) البداية والنهاية ٢/ ٢٠٥-٢٠٨، وانظر دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١١٦، والسيرة النبوية لابن كثير - تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد، وقد صححت منه بعض أخطاء النص ١/ ١٢٣.

وموقف آخر يتعلق بالمال أيضاً، وهو أن أبا سفيان لما عرض على رسول الله ﷺ أن لا يأخذ منه مقابل التجارة بماله كما يأخذ من غيره رفض وأبى أن يأخذ بضاعته إلا بعد أن يأخذ أبو سفيان حقه في ذلك.

وهذا مثال للعفة والقناعة، وهما من مكارم الأخلاق العالية، ومكارم الأخلاق من أهم الدعائم التي تقوم عليها الدعوة الناجحة.

كما أن في عزوف النبي ﷺ عن قبول عرض أبي سفيان هذا ترفعاً عن الخضوع للكفار، لأن من بُذل له المعروف يكون أسيراً لباذله، فلا ينبغي لمسلم أن يكون لكافر عليه منة أو معروف.

وبهذا يبين لنا رسول الله ﷺ شيئاً من معالم الطريق في معاملة الكفار.

وفي هذا الخبر عبرة عظيمة في ذكر شيء من صفات النبي ﷺ في كتب أهل الكتاب، وكانت تلك الصفات من الشهرة بحيث علم بها المتنصِّرون من العرب، ولقد كانت آية عظيمة يهتدى بها من تجرد قلبه من اتباع الهوى المنحرف، وفي بيان عظمة هذه الآية يقول الله تبارك وتعالى ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

❋ ❋ ❋

١٠ - الدعـــوة بالتبشـــير والإنـــذار

(الجهر بالدعوة ومخاطبة عموم قريش)

كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ يتوجه في دعوته إلى أهم الدوافع التي تدفع أصحاب العقول السليمة إلى الاستجابة لدعوة التوحيد، وذلك بإثارة الاهتمام نحو مستقبل الناس بعد الموت، حيث الحياة الخالدة في الآخرة، وذلك في النعيم المقيم لمن أجاب واهتدى، والعذاب المقيم لمن عصى وغوى.

ومع تصديق الكفار له في كل أخباره الدنيوية لما تواتر عنه من الأمانة والصدق فإن أغلبهم ردَّ دعوته، وكاده بعض عشيرته الأقربين.

ومن الأمثلة التي تبين موقفه هذا وموقف قومه منه ما أخرجه الإمام البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد إلى الجبل فنادى: يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبِّحكم أو ممسِّيكم أكنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا تبًّا لك، فأنزل الله عز وجل ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ** ﴾ [المسد: ١ - ٣] إلى آخرها[١].

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير رقم ٤٩٧١، (الفتح ٨/ ٧٣٧).

وكذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾[1] دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فَعَمَّ وخص فقال: «يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبدالمطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبلها بِبَلالها»[2].

فهاتان الروايتان مع روايات أخرى تبين لنا الموقف الصعب الذي كان يواجهه رسول الله ﷺ من قومه، وقد أمره الله تعالى بدعوة عشيرته الأقربين، وإن في الأمر بالبدء بدعوة الأقربين حكَماً عظيمة، منها أن بقاء الظلام المحيط بالنور من قرب يحول دون رؤية ذلك النور بوضوح فكان تبديده عاملاً مهمًّا في انتشار ذلك النور، فالبدء بدعوة الأقربين لأنهم محل حكم الناس على الداعية فإذا لم ينجح مع أقاربه كان لذلك أثر في الصد عن دعوته، هذا إضافة إلى أن الدعوة برٌ وإحسان وأحق الناس ببر الإنسان أقاربه.

ولقد قَدَّم النبي ﷺ بمقدمة تلزمهم بالإذعان لو كانوا متجردين من الهوى والتقليد، وذلك أنه صور نفسه نذيراً لقومه ينذرهم من جيش قد اقترب منهم «أرأيتم لو حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم» فهذا يعني أنهم على استعداد لقبول إنذاره فيما

---

(١) سورة الشعراء، آية (٢١٤).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان رقم ٢٠٤ ص ١٩٢.

يتعلق بدنياهم، فلما اطمأن إلى ذلك ذكر لهم ما جمعهم من أجله، وهو إنذارهم مما هو أجل خطراً وأعظم عاقبة فقال : «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» يعني فكما صدقتموني في وقايتكم من مكروه الدنيا فصدقوني في وقايتكم من مكروه الآخرة الذي هو أشد وأبقى.

وفي هذا دلالة على أن من أساليب الدعوة التي سلكها رسول الله ﷺ الاستشهاد بالأمر المعلوم الذي تمت القناعة به على الأمر الجديد الذي يريد الداعية أن يدعو الناس إليه.

فأهل مكة المكرمة آنذاك كانوا يصدقون رسول الله ﷺ في كل ما يقوله من أخبار الدنيا، ولذلك لقبوه بالأمين فاعتمد هذه القناعة الثابتة عندهم لدعوتهم إلى الإيمان بالآخرة.

كما أن في هذا دلالة على أنه مما يجب أن يتزود به الداعية الرصيد الأخلاقي الكبير الذي يجبر خصومه على الاعتراف بفضله في هذا المجال ليتوصل بذلك إلى نشر دعوته السامية.

ولكنّ أفراد عشيرته ﷺ هؤلاء صمتوا فلم يجيبوا ولم يستجيبوا لدعوته، بل إن عمه أبا لهب لم يكتف بذلك، وإنما ردّ عليه بهذا الرد القاسي السيئ.

ومع هذه المعاملة القاسية فإن النبي ﷺ ظل صامداً في دعوته غير عابيء بتحدي قومه ولا بصدودهم.

وإذا تأملنا دعوة النبي ﷺ نجد أنه قد بدأ دعوته هذه بتذكير قومه

بالنار، وحثهم على استنقاذ أنفسهم منها، وهذا دليل على أهمية هذا الجانب في الدعوة.

وقد جاءت آيات الدعوة متضمنة التحذير من النار، وأحياناً تأتي بالجمع بين الإنذار من النار والتبشير بالجنة.

هذا وإن قيام الدعاة إلى الله تعالى بالتركيز على شرح محاسن الإسلام أمر حسن، ولكن يجب أن يكون المقام الأول في الدعوة الاهتمام بإيقاظ الناس، واجتذابهم عن طريق التبشير والإنذار.

وقد بين الله سبحانه أن هذه مهمة الرسل عليهم السلام ﴿ **رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً** ﴾[1] فمن اهتم بهذا الجانب من الدعوة كان من سالكي منهج الرسل عليهم السلام وحَرِيٌّ به أن يستجاب له إذا خلصت نيته.

إنه لاشك أن الإسلام يصل بالفرد وبالمجتمع الإنساني إلى أعلى المستويات في جميع المجالات: الأخلاقية والتربوية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها مما تقوم عليه الحياة الكاملة لأن الإسلام دين الله تعالى، وهو سبحانه أعلم بما يصلح عباده في كل أمور حياتهم، بخلاف المناهج البشرية التي مهما علت لايمكن أن توضع في مجال موازنة مع تشريع الله سبحانه خالق البشر.

وإنه من المفيد جداً في مجال الدعوة أن يقوم الدعاة ببيان عظمة

---

(١) سورة النساء، آية (١٦٥).

الإسلام في كل هذه المجالات، من ناحية أثرها في إصلاح الفرد والمجتمع في هذه الحياة الدنيا، ولكن يجب أن لايكون هذا هو الأساس الذي تقوم عليه الدعوة بحيث يُغفل الدعاة مجال الدعوة بالتبشير بالجنة والتحذير من النار، أو يقصرون في ذلك، وذلك لأنه بإمكان الكفار أن يدَّعوا بأن لديهم مناهج تقوم بإصلاح الفرد والمجتمع في المجالات المذكورة، وأن يضربوا على ذلك أمثلة واقعية من مجتمعهم المتقدم نسبياً في هذه المجالات أو بعضها - وهم لايدركون عظمة الإسلام في هذه المجالات إلا بعد التعمق في دراسته، وقليلاً ما يتم ذلك - ولكن لايستطيعون أن يدعوا بأن مناهجهم تلك توصل مطبقيها إلى دخول الجنة والنجاة من النار، فتبقى مناهجهم بذلك مناهج دنيوية، ويبقى في شعور كل مفكر عاقل فراغ في التفكير فيما سيئول إليه بعد الموت، ولن يجد في كل الحضارات المادية والأفكار البشرية إجابة على سؤاله هذا، وإنما يجده في الدين الإسلامي وحده.

إن في اهتمام النبي ﷺ المتكرر طوال حياته الدعوية بالتبشير بالجنة والتحذير من النار دلالة على أهمية غرس الوازع الديني في النفوس حتى يصل المسلم إلى درجة عالية من التضحية بالدنيا من أجل الآخرة، فأما حينما يكون الإعجاب بالإسلام والانجذاب إليه لكونه يحقق لمعتنقيه مناهج عالية في مجالات الحياة الدنيا فقط فإنه لاينتظر من هؤلاء أن يضحوا بحياتهم ومصالحهم الدنيوية من أجل الإسلام.

وفي قوله ﷺ: «فإني لا أملك لكم من الله شيئاً» دلالة واضحة على أنه لاينجي الإنسان يوم القيامة إلا إيمانه وعمله الصالح، وإذا كان النبي

ﷺ لاينقذ من النار حتى أقرب أقاربه، فإن ذلك لايكون لغيره من البشر مهما بلغوا من الولاية والصلاح.

وقوله ﷺ : «غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها» يعني إذا كنت لاأستطيع إنقاذكم من النار إلا بدخولكم في الإسلام فإن ذلك لايمنعني من أن أصلكم في الدنيا لقرابتكم مني.

وهذا الاستثناء له أثره الكبير في إبقاء حبل الوصل مع عشيرته، لأنهم - وهم كفار - لايهتمون بالآخرة، حيث لايؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار، وإنما يهتمون بالحياة الدنيا، وقد أعلن لهم رسول الله ﷺ أنه لن يتغير شيء في حياته عما كان عليه من صلة رحمه، فلعل بقاء هذا الخيط الذي يعرفونه ويقدرونه يكون سبباً في إيمانهم بما أنكروه من دعوته ولم يقدروه حق قدره.

وإذا كان النبي ﷺ قد أبقى على صلته مع أقاربه وهم كفار، فمن باب أولى لعموم المسلمين وخاصة للدعاة أن يبقوا على صلتهم بأقاربهم المسلمين وإن أنكروا منهم بعض السلوك أو جابهوهم بشيء من النفور والتحدي، من أجل أن تكون هذه الصلة سبباً بعد ذلك في عودتهم إلى الالتزام بالدين واحترام دعاته المخلصين.

وهذا لا يتعارض مع المنهج التربوي الذي سنه رسول الله ﷺ في معاملة بعض المذنبين، كما حدث مع الثلاثة المتخلفين يوم تبوك حيث كان الهجر شاملاً حتى مع أقاربهم.. لايتعارض مع ذلك لأن المقصود في الأمرين واحد وهو الدعوة.

فالإبقاء على صلة الرحم مع من وقعت منهم المخالفات الشرعية يقصد به دعوتهم إلى الهداية والاستقامة، وكذلك الهجر التربوي حينما يكون هو العلاج الناجح في تزكية النفوس وعلاجها من أدوائها فإن المقصود به دعوة أولئك المقصرين إلى الاستقامة على الصراط المستقيم، وكلا المنهجين الدعويين داخلان في الدعوة إلى سبيل الله تعالى بالحكمة.



١١ – مثل من الدعوة الناجحة والتضحية الخالدة
(إسلام عمرو بن عبسة السلّمي)

أخرج الإمام مسلم بإسناده عن أبي أمامة قال: قال عمرو بن عبسة السلمي: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً، جرءاء عليه قومه.

فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبي» فقلت: وما نبي؟ قال: «أرسلني الله» فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لايشرك به شيء» قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: «حر وعبد» قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به فقلت: إني متبعك. قال: «إنك لاتستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني».

قال فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكنت في أهلي، فجعلت أتخبر الأخبار وأسأل الناس حين قدم المدينةِ، حتى قدم عليَّ نفر من أهل يثرب من أهل المدينة، فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سِرَاعٌ. وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك.

فقدمت المدينة فدخلت عليه، فقلت: يا رسول الله! أتعرفني؟ قال: «نعم. أنت الذي لقيتني بمكة؟».

وذكر بقية الحديث وفيه أنه سأله عن الصلاة والوضوء[1].

ففي هذا الخبر موقف يذكر لعمرو بن عبسة حيث آمن بالنبي ﷺ في أوائل دعوة الإسلام وفي حال قلة المسلمين وكثرة أعدائهم، ولم يقتصر على ذلك، بل أبدى رغبته في مصاحبة النبي ﷺ والبقاء معه في ذلك الظرف العصيب، ولكن النبي ﷺ قبل منه إسلامه، وأبان له بأنه لايستطيع أن يتحمل مشقة الصحبة والاتباع في ذلك الوقت، لما سيتعرض له من الأذى الشديد على يد الكفار ولكون النبي ﷺ لايستطيع حمايته.

وقد جاء في هذا الخبر أن عمرو بن عبسة سأل النبي ﷺ عن الإسلام بعد أن علم بأنه رسول الله ﷺ، فقال: وبأي شيء أرسلك؟ فقال النبي ﷺ: «أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لايشرك به» وفي هذا دليل على أهمية صلة الأرحام حيث كان هذا الخلق العظيم من أوليات دعوة الإسلام، مع اقترانه بالدعوة إلى التوحيد.

وقد ظهر في هذا البيان الهجوم على الأوثان بقوة مع أنها كانت أقدس شيء عند العرب، وفي هذا دلالة على أهمية إزالة معالم الجاهلية، وأن دعوة التوحيد لاتستقر ولا تنتشر إلا بزوال هذه المعالم.

---

(1) صحيح مسلم ٥٦٩ رقم ٨٣٢، كتاب صلاة المسافرين.

وفي اهتمام النبي ﷺ المبكر بإزالة الأوثان مع عدم قدرته على تنفيذ ذلك في ذلك الوقت دلالة على أن أمور الدين لايجوز تأخير بيانها للناس بحجة عدم القدرة علي تطبيقها، فالذين يبينون للناس من أمور الدين ما يستطيعون تطبيقه بسهولة وأمن، ويحجمون عن بيان أمور الدين التي يحتاج تطبيقها إلى شيء من المواجهة والجهاد.. هؤلاء دعوتهم ناقصة، ولم يقتدوا برسول الله ﷺ الذي واجه الجاهلية وطغاتها وهو في قلة من أنصاره، والسيادة في بلده لأعدائه.

وجاء في هذا الخبر أن عمرو بن عبسة سأل رسول الله ﷺ عن أتباعه فقال «حر وعبد» وقد فسر ذلك عمرو بأن المراد أبو بكر وبلال، وهذا يحتمل أمرين:

الأول: أن الكلام على ظاهره وأنه لم يسلم في ذلك الوقت خارج بيت النبي ﷺ إلا أبو بكر وبلال، وبناء على ما سبق من أن أبا بكر هو أول من أسلم يكون بلال ثاني رجل أسلم خارج البيت النبوي.

الثاني: أن هناك مسلمين آخرين ولكن النبي ﷺ أخفى ذكرهم لكونهم يخفون إسلامهم عن قومهم، بينما كان أبو بكر ظاهر الإسلام، وبلال قد ظهر إسلامه، فذكرهما لكونهما لايتضرران بهذا الذكر، وهذا هو الظاهر لأن عمرو بن عبسة علم عن الإسلام وهو في بلاده، وظهور الإسلام خارج مكة وعلم القبائل به كان بعد الجهر بالدعوة بينما كان المسلمون الأوائل قد دخلوا في الإسلام قبل الجهر بالدعوة كما سبق في إسلام الخمسة على يد أبي بكر.

ومما يدل على تأخر وفادة عمرو بن عبسة قوله في وصف النبي ﷺ «جُرءاء عليه قومه» ، وقول النبي ﷺ «ألا ترى حالي وحال الناس ؟» فهذا يدل على أن وفادته كانت بعد حدوث الخلاف والعداء من المشركين لرسول الله ﷺ ، وذلك بعد أن جهر بنقد الجاهلية التي كان عليها قومه، وهذا النقد كان بعد الجهر بالدعوة، بل إنه قد جاء في هذا الخبر التصريح بكسر الأوثان وهذا كان بعد الجهر بالدعوة.



١٢ - مواقف في الدعوة وإيثار الإسلام
(قدوم أسرة زيد بن حارثة لطلبه)

أخرج الحاكم رحمه الله بإسناده عن أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما قال: كان حارثة بن شراحيل تزوج امرأة في طيء من نبهان فأولْدها جبلة وأسماء وزيداً فتوفيت وأخلفت أولادها في حجر جدهم لأبيهم، وأراد حارثة حمهلم فأتى جدهم فقال ما عندنا فهو خير لهم فتراضوا إلى أن حمل جبلة وأسماء وخلف زيداً.

وجاءت خيل من تهامة من بني فزارة فأغارت على طيء فسبت زيداً فصيروه إلى سوق عكاظ فرآه النبي ﷺ من قبل أن يبعث فقال لخديجة رضي الله عنها: يا خديجة رأيت في السوق غلاماً من صفته كيت وكيت: يصف عقلاً وأدباً وجمالاً لو أن لي مالاً لاشتريته فأمرت ورقة بن نوفل فاشتراه من مالها فقال: يا خديجة هبي لي هذا الغلام بطيب من نفسك فقالت: يا محمد أرى غلاماً وضيئاً وأخاف أن تبيعه أو تهبه. فقال النبي ﷺ: ياموفقة ما أردت إلا لأتبناه فقالت: نعم يا محمد فرباه وتبناه فكان يقال له زيد بن محمد.

فجاء رجل من الحي فنظر إلى زيد فعرفه فقال: أنت زيد بن حارثة قال: لا أنا زيد بن محمد قال: لا بل أنت زيد بن حارثة من صفة أبيك وعمومتك وأخوالك كيت وكيت قد أتعبوا الأبدان وأنفقوا الأموال في سبيلك فقال زيد:

أحنُّ إلى قومي وإنْ كنت نائياً فإني قطين البيت عند المشاعر

وكفُّوا من الوجه الذي قد شجاكم ولا تُعملوا في الأرض فعل الأباعر

فإني بحمد الله في خير أسرة خيار معد كابراً بعد كابر

فقال حارثة لما وصل إليه:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل أحيٌّ فيرجى أم أتى دونه الأجل

فو الله ما أدري وإني لسائل أغا لك سهل الأرض أم غالك الجبل

فياليت شعري هل لك الدهر رجعة فحسبي من الدنيا رجوعك لي بَجَل(1)

تُذكّرنيه الشمس عند طلوعها ويعرض لي ذكراه إذ عسعس الطَّفَل(2)

وإذ هبت الأرواح هيَّجن ذكره فيا طول أحزاني عليه ويا وجل

سأعمل نَصَّ العيس(3) في الأرض جاهداً ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل

فيَأتيَ أو تأتي عليَّ منيتي وكل امرىء فَانٍ وإن غره الأمل

فقدم حارثة بن شراحيل إلى مكة في إخوته وأهل بيته فأتى النبي ﷺ في فناء الكعبة في نفر من أصحابه فيهم زيد بن حارثة فلما نظروا إلى زيد عرفوه وعرفهم ولم يقم إليهم إجلالاً لرسول الله ﷺ .

فقالوا له : يا زيد، فلم يجبهم فقال له النبي ﷺ : من هؤلاء يا زيد ؟ قال : يارسول الله هذا أبي وهذا عمي وهذا أخي وهؤلاء عشيرتي .

---

(1) بجل أي حسبي

(2) أي أقبل الغروب .

(3) العيس هي الإبل ، يعني أنه سيجتهد في البحث عن زيد .

فقال له النبي ﷺ : قم فسلم عليهم يا زيد فقام فسلم عليهم وسلموا عليه ثم قالوا له : امض معنا يا زيد .

فقال : ما أريد برسول الله ﷺ بدلاً ولا غيره أحداً فقالوا : يا محمد إنَّا معطوك بهذا الغلام ديات فسمِّ ما شئت فإنا حاملوه إليك .

فقال : أسألكم أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأني خاتم أنبيائه ورسله وأرسله معكم ، فتأبَّوا وتلكئوا وتلجلجوا ، فقالوا : تقبل منا ما عرضنا عليك من الدنانير ؟ فقال لهم : ها هنا خصلة غير هذه قد جعلت الأمر إليه فإن شاء فليقم وإن شاء فليرحل .

قالوا : ما بقى شيىء ، قالوا : يا زيد قد أذن لك الآن محمد فانطلق معنا ، قال : هيهات هيهات ما أريد برسول الله ﷺ بدلاً ولا أوثر عليه والداً ولا ولداً ، فأداروه وألاصوه واستعطفوه وأخبروه مَنْ وراءه من وَجْدهم ، فأبى وحلف أن لا يلحقهم .

قال حارثة : أما أنا فأواسيك بنفسي أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأبى الباقون .

وأخرج الحاكم أيضاً من طريق أبي عمرو الشيباني : حدثني جبلة بن حارثة أخو زيد بن حارثة قال : أتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ابعث معي أخي زيداً فقال هو ذا هو ، إن أراد لم أمنعه فقال زيد : لا والله لا أختار عليك أحداً ، قال جبلة : إنَّ رأي أخي أفضل من رأيي .

وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو شاهد للحديث الماضي وأقره الذهبي [1] .

في هذا الخبر مواقف : الأول في اهتمام النبي ﷺ بالدعوة إلى الإسلام ، حيث اغتنم فرصة قدوم عشيرة زيد بن حارثة رضي الله عنه ليدعوهم إلى الإسلام ، خاصة وأنهم في فرحة غامرة بلقاء ابنهم وفي شوق بالغ لرجوعه معهم ، فلم يطلب من زيد مالاً وإنما جعل مقابل سماحه بالعودة معهم أن يدخلوا في الإسلام .

والموقف الثاني : في تعففه ﷺ وترفعه عن الأموال التي حكّموه في عددها في مقابل تخليه عن زيد ، فلما فات ما قصده من إسلامهم جعل الخيار إلى زيد نفسه ففرحوا بذلك واعتبروه غاية التكرم والتفضل .

والموقف الثالث : في تعلق زيد بن حارثة برسول الله ﷺ وحبه الشديد له الذي فاق حب والده وعشيرته حيث رفض الذهاب معهم رغم إلحاحهم الشديد ، ويترتب على ذلك إيثار الحب في الله تعالى على جميع العلاقات الدنيوية التي أبرزها حب القرابة .

لقد كان في شعور زيد - كأي إنسان - ميل فطري إلى الأهل والعشيرة والوطن الذي درج فيه وهو في صباه ، ولقد كان في إمكانه أن يذهب مع أسرته ويبقى على إسلامه ، ولكن حبه للنبي ﷺ قد ملأ قلبه ، حتى أصبح حبه لأبيه وأسرته لا يساوي شيئاً عند المقارنة بحبه لسيده

---

(١) المستدرك ٣/ ٢١٤ .

ورسوله ﷺ ، لذلك قال : « هيهات هيهات ، ما أريد برسول الله ﷺ ، بدلاً ، ولا أؤثر عليه والداً ولا ولداً » فكان مصمماً في قراره على البقاء في مكة من اللحظة الأولى التي عرض عليه فيها أبوه العودة إلى بلده، ولم يحصل منه أي تردد في هذا الأمر .

* * *

١٣ - نماذج من قوة تأثير النبي ﷺ بالقرآن
(تأثر بعض زعماء قريش / تأثر وفد النصارى)

لقد كان كثير من المشركين مقتنعين بأن ما جاء به رسول الله ﷺ حق وأنه من عند الله تعالى ، ولقد كانوا على يقين بأن القرآن كلام الله تعالى وأنه ليس من كلام البشر ، ولكن كان يمنع من أصرَّ منهم على الكفر من الدخول في الإسلام هواهم المنحرف ، ولقد اعترف بعضهم بنداء عقولهم نحو الاعتراف بصدق النبي ﷺ كما اعترفوا بأن هوى أنفسهم قد غلبهم فأصروا على ما هم فيه من الباطل .

ومما جاء في هذا المعنى ما أخرجه محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى من حديث الإمام الزهري أنه حَدَّث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً ليستمع فيه ، وكلٌ لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة .

ثم انصرفوا فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض : لانبرح حتى نتعاهد أن لا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها ، فقال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك .

قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال : ماذا سمعت ! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الرّكَب وكنا كفَرسَي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ، فقام عنه الأخنس وتركه [1] .

في هذا الخبر مثلٌ من قوة تأثير رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم على

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢١ ، دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٠٦ ، البداية والنهاية ٣/ ٦٢ ، وذكره الصالحي من رواية الحافظ محمد بن يحيى الذهلي في الزهريات عن الزهري عن سعيد بن المسيب وصحح إسناده ، سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣٥٢ .

السامعين ، فهؤلاء فطاحلة الكفر يتسللون سراً ليستمع كل واحد منهم قراءته ليلاً ، مدفوعين إلى هذه المغامرة بما أخذُوا به من جاذبية بيانه وهيئته الأخاذة وهو يتلو كتاب الله تعالى وبما يحتوي عليه هذا الكتاب العظيم من إعجاز في بيانه ومحتواه .

وبعد أن استمع هؤلاء النفر لقراءة النبي ﷺ وقعوا في صراع نفسي بين تغليب منطق العقل وتغليب منطق الهوى والعاطفة ، ثم قرروا تغليب جانب الهوى والعاطفة في النهاية[١] .

وهذا نوع من السفول في التفكير والانحطاط في درجات الإنسانية حيث ينحدر الإنسان إلى خلائق البهائم العجماوات ، ويعطلُ الاستفادة من عقله الذي وهبه الله إياه في أقدس وأعظم أمر يجب أن يفكر فيه وهو مستقبله بعد الموت .

وفي هذا الخبر مثل من الاعتراف بالحق ثم الإصرار على الباطل ، وهذه نهاية الصراع بين منطق الهوى ومنطق العقل ، وإذا انحط الإنسان إلى هذا الدرك أصبح مختوماً على قلبه فلا يدرك غالباً إلا ما يتلاءم مع هواه ، ولهذا يصدر من مثل هذا كثير من السلوك الذي يزدريه أهل العقل السليم .

وفي هذا الخبر بيان سبب من أهم أسباب الضلال ، وهو الاعتصام بالمجد الدنيوي واعتبار الجاه والمنزلة في الدنيا هدفاً يُسعى إليه ، فإذا استقر ذلك في القلب أصبح عقيدة يسعى صاحبها إلى تنميتها والدفاع

---

(١) يعني في نهاية هذه القصة ، وينبغي أن يعلم أن أبا سفيان قد أسلم يوم فتح مكة .

عنها . وأصبح تفكيره محصوراً فيها مصروفاً عن سماع الحق والتفكير فيه ، وبهذا يكون الجاه والمجد الدنيوي من أعظم الأوثان التي تصرف عن عبادة الله تعالى .

ومن أمثلة قوة تأثير النبي ﷺ بالقرآن ما أخرجه الإمام البيهقي من حديث عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رقَّ له .

فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال : يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ، قال : لم ؟ قال : ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبلَه ، قال : قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له ، قال : وماذا أقول فيه فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا ، ووالله إن لقَوْله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يُعْلَى ، وإنه ليحطم ما تحته .

قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ، قال فدعني أفكِّرْ فيه ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره ، فنزلت ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً** ﴾ [المدثر : ١١] . ثم ذكر طرقاً أخرى مرسلة وقال : وكل ذلك يؤكد بعضه بعضا [1] .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٩٨ ، وذكره الحافظ ابن كثير من رواية البيهقي - البداية والنهاية ٣/ ٥٩ . وأخرجه الحاكم من حديث ابن عباس وقال : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه ، وأقره الحافظ الذهبي - المستدرك ٢/ ٥٠٦ .

وقد جاء في رواية مقاربة أخرجها ابن إسحاق رحمه الله أن الوليد ابن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سنٍّ فيهم ، وقد حضر الموسم فقال : يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذِّب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً .

فقالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا فيه رأياً نقول به ، فقال : بل أنتم فقولوا أسمع .

فقالوا : نقول : كاهن ، فقال : ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه .

فقالوا : فنقول : مجنون ، فقال : ما هو بمجنون ، ولقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته .

قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر .

قالوا : فنقول ساحر ، قال : فما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم .

قالوا : ما تقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله طلاوة وإن أصله لَعَذْق [1] وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل ، وإن أقرب القول لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسُبُل الناس حين قدموا الموسم لا

---

(١) قال ابن هشام : ويقال : لغَدَق .

يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره .

فأنزل الله عز وجل في الوليد بن المغيرة وفي ذلك من قوله ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ** ﴾ [المدثر : ١١ - ٣٠] [1] .

قال ابن إسحاق : وأنزل الله عز وجل في النفر الذين كانوا معه يصنِّفون له القول في رسول الله ﷺ وفيما جاء به من عند الله تعالى ﴿ **كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [2] .

قال ابن إسحاق : فجعل أولئك النفر يقولون ذلك في رسول الله ﷺ لمن لقوا من الناس ، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها [3] .

---

(١) المدثر ١١-٣٠ ، وقوله تعالى : ﴿**وحيداً**﴾ يعني إن الله تعالى خلق الوليد بن المغيرة وحيداً لا مال له ولا ولد فرزقه المال والولد وفي هذا تبكيت له على كفران النعمة . وقوله (صعوداً) يعني عذاباً شاقاً .
وقوله ﴿**فقتل كيف قدّر**﴾ يعني قاتله الله ما أسوأ تفكيره فهو تعجب إنكاري من تقديره الفاسد .
وقوله (ثم عبس) يعني قطب وجهه (وبسر) زاد وجهه تقطيباً وهو يستلهم فكره المعوج ليسعفه بما يفتري به على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) الحجر : [٩٠-٩٣] .

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٢٦٨ ، وأخرجه الحافظ البيهقي من طريق ابن إسحاق قال : حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس . . وذكر مثله - دلائل النبوة ٢/ ٩٩-٢٠٠ .

وقوله : « وإن أصله لعذق » قال السهيلي : وقول الوليد : « إن أصله لعذق وإن فرعه لجناة » استعارة من النخلة التي ثبت أصلها وقوي وطاب فرعها إذا جني ، والنخلة هي العذق بفتح العين ، ورواية ابن إسحاق أفصح من رواية ابن هشام لأنها استعارة تامة يشبه آخر الكلام أوله ، ورواية ابن هشام : إن أصله لغَدَق ، وهو الماء الكثير [1] .

وما جاء في رواية البيهقي من قوله « لمغدق » لعلها لغدق كما جاء في الرواية التي حكاها ابن هشام .

وهكذا تبين لنا من هذا الخبر عظمة النبي ﷺ وقوته في التأثير بالقرآن على سامعيه ، فالوليد بن المغيرة كبير قريش ومن أكبر سادتهم ، ومع ما يحصل عادة للكبراء من التكبر والتعاظم فإنه قد تأثر بالقرآن ورق له واعترف بعظمته ووصفه بذلك الوصف البليغ المؤثر .

وفي هذا الخبر بيان لصورة من صور المكر الذي كان يقوم به فرعون هذه الأمة أبو جهل من التنفير عن الإسلام فكان كلما رأى رجلاً من أشراف قريش قد مال إلى الإسلام ابتكر من أنواع المكر ما يستطيع به التأثير عليه لإدراكه بأن موازين القوى تتغير بانضمام عدد من الأشراف إلى الإسلام ، وقد كان الوليد بن المغيرة من أكابر قريش سناً ومنزلة ، وقد أظهر إعجابه بما سمع من القرآن ووصفه بذلك الوصف البليغ الذي صدر منه وهو في حال استجابة لنداء العقل وتحرر من نداء العاطفة ، فلما دخل في تفكيره كلام أبي جهل غلب عليه نداء العاطفة ففضل البقاء

---

(١) الروض الأنف ٣/ ٧٩ .

على ميراث الآباء والأجداد وإن كان ضلالاً ، وحجب نداء العقل السليم والتفكير المتزن .

وفي هذا الخبر بيان أثر دعوة رسول الله ﷺ البالغ على الكفار ، حيث حملهم ذلك على الخروج عن مألوف العقلاء ، ولا شك أن سلوك رسول الله ﷺ الحكيم وطهارة سمعته من أي شائبة من الرذائل بعد توجيه الله سبحانه إياه ، حمل الكفار على اختلاق تُهَم لا أصل لها فعقدوا لذلك مجلساً أعلى لتزوير الحقائق ، ثم صاروا يفندونها لوضوح بطلانها ورثاثة نسيجها .

وقد استقر رأيهم على اتهام رسول الله ﷺ بالسحر مع اعترافهم ببعد ما بين فحوى كلامه والسحر ، إلا أنهم بعد إعمال الفكر وجدوا نوع تشابه بين أثر دعوة رسول الله ﷺ وما يحدثه السحر من التفريق بين الرجل وابنه وزوجه وعشيرته ، فتنفسوا الصعداء مما كانوا يعانون منه من الضيق وانغلاق الفكر ، فأجمعوا على اتهامه بالسحر وهم يعلمون أن هناك فرقاً بين أثر دعوة الحق وأثر السحر الباطل ، إلا أنهم لفرط عداوتهم وإفلاس حجتهم تعلقوا من ذلك بأوهى من خيوط العنكبوت .

وهكذا أهل الباطل في كل زمن ماهرون في إلصاق التهم المزيفة بالدعاة إلى الله تعالى ، ولكن سرعان ما ينكشف باطلهم ويبطل كيدهم لأنهم مهما عملوا لا يملكون الهيمنة على عقول الناس ، فإذا قارن العقلاء بين نصاعة دعوة الحق وطهارة دعاته من الرذائل ، وسمو مقاصدهم ، وطموحهم دائماً نحو المعالي من صالح الأعمال تبين لهم

الصفو من الكدر ، وزاد تعلقهم بدعاة الحق والتزامهم بتوجيهاتهم الحكيمة .

وفي هذا الخبر مثل من نشاط دعاة الباطل في نشر باطلهم وحمايته مع أنهم لا يرجون من ورائه إلا متاع الدنيا ومجدها الزائل ، وهذا دافع لأهل الحق إلى أن يضاعفوا من جهدهم في نشر حقهم والدفاع عنه ، لأنهم يرجون من الله ما لا يرجو أولئك الكفار .

ولئن كانت العاقبة التي يرجوها الكفار من هذه التضحية هي التمكين في الأرض فإن ذلك يحصل للمؤمنين إذا أخلصوا في دعوتهم كما وعدهم الله تعالى ، مع ما أعده الله لهم في الآخرة من النعيم المقيم والنجاة من العذاب الأليم .

ومن أمثلة قوة تأثير النبي ﷺ بالقرآن ما كان من وفد النصارى الذين أسلموا لما سمعوا القرآن .

قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى : ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه في المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا ؛ دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له ؛ وآمنوا به ، وصدقوا وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره .

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيَّبكم الله من ركب ! بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم ؛ وصدقتموه بما قال ! ما نعلم ركباً أحمق منكم - أو كما قالوا - فقالو لهم : سلام عليكم ؛ لا نجاهلكم ؛ لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيراً[1] .

وهكذا لما كان هؤلاء النصارى قد تجردوا من الهوى المنحرف ، وأقبلوا وهم يريدون معرفة الحق الذي تحدثت عنه كتب أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام ورأوا هذا الحق متمثلاً ببعثة رسول الله ﷺ فإنهم قد تأثروا بسماع القرآن وبكوا خشوعاً لله تعالى وآمنوا برسوله ﷺ وعرفوا يقيناً أنه النبي الذي بشر به أنبياؤهم عليهم الصلاة والسلام .

ولكن طغاة المشركين لم يعجبهم هذا الموقف ، ولما كانوا مفلسين في مجال الحجة فإنهم لم يحاولوا إقناع أولئك النصارى بالعدول عن الإسلام ليقينهم بالفشل في ذلك ، ولكنهم حاولوا إفراغ ما في نفوسهم من الحقد على رسول الله ﷺ وعلى دعوته فسخروا من ذلك الوفد وانتقصوهم ، ولما كان أولئك النصارى قد جمعوا بين تهذيب دينهم السابق وما وقر في نفوسهم من اليقين بدين الإسلام فإنهم لم ينزلوا إلى مستوى أولئك المتجبرين المستكبرين بل خاطبوهم بهدوء وسكينة وأشعروهم بأنهم على قناعة تامة بما آمنوا به .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤١٢-٤١٣ .

١٤ – مثل من دعوة رسول الله ﷺ المؤثرة
(إسلام ضماد الأزدي ورجل من بني عامر)

لقد كان رسول الله ﷺ عظيم النجاح في دعوته ، بليغاً في التأثير على من خاطبه ، حيث يؤثر على من جالسه بهيئته وسمته ووقاره قبل أن يتكلم ، ثم إذا تحدث أسر سامعيه بمنطقه البليغ المتمثل من العقل السليم والعاطفة الجياشة بالحب والصفاء والنية الخالصة في هداية الأمة بوحي الله تعالى .

وإن من أبرز الأمثلة على قوته في التأثير بالكلمة المعبرة والأخلاق الكريمة ، ما كان من موقفه مع ضماد الأزدي الذي وفد إلى مكة وتأثر بدعاوى المشركين عن رسول الله ﷺ حتى وقر في نفسه أنه مصاب بالجنون كما يتهمه بذلك قومه .

وقد أخرج الإمام مسلم رحمه الله من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن ضماداً الأزدي قدم مكة وكان من أزد شنوءه ، وكان يرقي من هذه الريح – يعني يعالج من الجنون – فسمع سفهاء مكة يقولون إن محمداً مجنون فقال : لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي .

قال فلقيه فقال : يا محمد إني أرقي من هذه الريح ، وإن الله يشفي على يدي من شاء فهل لك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد

أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد» .

قال فقال : أعد علي كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، قال فقال : لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن قاموس البحر [١] .

قال فقال : هات يدك أبايعك على الإسلام قال : فبايعه ، فقال رسول الله ﷺ : وعلى قومك ، قال : وعلى قومي .

قال : فبعث رسول الله ﷺ سرية [٢] فمروا بقومه فقال صاحب السرية للجيش : هل أصبتم من هؤلاء شيئاً ؟ فقال رجل من القوم : أصبت منهم مطهرة ، فقال : ردوها فإن هؤلاء قوم ضماد . [٣]

في هذا الخبر بيان أن المشركين كانوا يتهمون رسول الله ﷺ بالجنون ، فهل كان وصفه بذلك مجرد تهمة ألصقها به أعداؤه من غير أن يسوغوها بأسباب يتوقعون أنها مقنعة ؟

قد تكون هذه التهمة غير مسوغة بذلك ، وإنما هي مجرد رأي خطر

---

(١) ذكر الإمام النووي أنه ضبط هذه الكلمة من وجهين : أولهما ناعوس والثاني قاموس ، وذكر أن هذا هو الأشهر عند غير مسلم ، وعليه سار أبو مسعود الدمشقي في أطراف الصحيحين والحميدي في الجمع بين الصحيحين ، وذكر أن هذا هو الموافق لكلام أهل اللغة وأن معناه وسط البحر وقعره ولجته - شرح النووي على صحيح مسلم ٦/١٥٧- .

(٢) يعني بعد الهجرة .

(٣) صحيح مسلم ص ٥٩٣ ، رقم ٨٦٨ .

لبعض زعمائهم لينفروا الناس من سماع دعوة رسول الله ﷺ فتبعهم على ذلك عامتهم .

وقد تكون مسوغة بمخالفة ما عليه جمهور الناس ، والقيام بتحدي من يملكون القوة والهيمنة ، والتضحية من أجل المبدأ بالمال والنفس . فيرى بعض الناس أن العقل يقتضي مسايرة الناس وطلبَ السلامة في النفس والمال ، وأن إهدار ذلك وتعريض النفس للهلاك ، والمال للضياع من أجل المحافظة على مبدأ يخالف ما عليه الناس نوع من الجنون .

ومن هذا الباب اتهام المشركين أبا بكر بالجنون حينما عرَّض نفسه للأذى وهو يدافع عن رسول الله ﷺ كما سيأتي .

ولذلك ترتفع نغمات المتعاقلين من المنافقين في كل زمن فيتهمون دعاة الإسلام الذين يقاومون الباطل ، ويتعرضون من أجل رفع دعوة الحق لضياع الأموال والتشرد والسجون والقتل أحياناً . . يتهمونهم بالجنون . . لا على أنهم قد فقدوا عقولهم بالكلية ، ولكن على أنهم فقدوا نوعاً من العقول يراها هؤلاء المنافقون وأشباههم من ضعفاء الإيمان هي العقول السليمة الجديرة بحمل هذا الاسم . . هذه العقول هي التي ترعى مصالحها الدنيوية ، وتساير جميع الأوضاع التي تعيش فيها سواء كانت الهيمنة لأهل الحق أو كانت لأهل الباطل .

فالتخلي عن المال من أجل الحفاظ على المبدأ السامي يعتبر عند هؤلاء ضرباً من الجنون .

والنظر إلى الدنيا والتفكير الدائم في تدبير الأموال وسياسة تشغيلها وصرفها هو عين العقل عند هؤلاء ، ويستوي عندهم من يبعثر أمواله في الطيش والتهور ، ومن ينفق أمواله في سبيل الله تعالى ، فكلاهما عند هؤلاء سفيه قاصر العقل ، بينما يكون الحكم في الإسلام على الأول بأنه قاصر العقل سفيه يجب الحجر عليه ، أما الثاني فإنه كامل العقل حيث قدم ماله ليكسب في الآخرة أضعافاً مضاعفة من الأجر ، ويستحق الثناء والشكر بما قدم من ماله لخدمة دينه وإخوانه المسلمين .

هذا وقد وجدت من كلام علماء التفسير ما يؤيد هذا التوجيه وذلك فيما رُوي عن الحسن البصري رحمه الله أنه فسر اتهام المشركين ذلك لرسول الله ﷺ بالضلال قال : وذلك أنهم لم يريدوا بالمجنون الذي يخرق ثيابه ويهذي ، بل لأن النبي ﷺ خالف أهل العقل في نظرهم ، كما يقال : ما لفلان عقْل [1] .

وقال الحسن أيضاً في هذا المعنى : لقد رأيت رجالاً لو رأيتموهم لقلتم مجانين [2] . يخاطب بذلك أهل الدنيا في عصره من المسلمين ، ويريد بالرجال من رآهم من الصحابة رضي اللّه عنهم ، ويقصد بهذا الكلام أن أهل الدنيا في عصره لو رأوا الصحابة في زهدهم في الدنيا

---

(١) ، (٢) فتاوى ابن تيمية ١٦/ ٧٢ .

وإقبالهم على الآخرة وتنافسهم في الجهاد وطلب الشهادة والإنفاق في سبيل الله تعالى لاتهموهم بالجنون .

وفي هذا الخبر بيان اتصاف رسول الله ﷺ بصفتي الصبر والحلم وهما من أهم الصفات اللازمة للنجاح في الدعوة ، فهذا الرجل وهو ضماد الأزدي قد قدم مكة وهو يعتقد أن رسول الله ﷺ مجنون ، وذلك لكثرة ما يبث قومه عنه من دعاوى كاذبة في القبائل ، وحيث إنَّ ضماداً يعالج من ابتلي بالجنون فإنه قد عرض على النبي ﷺ أن يعالجه من ذلك .

وهذا موقف يثير غضب من اتهم بذلك عادة ، ويتبع ذلك توبيخ المتكلم به إن لم يحصل ما هو أشد من ذلك ، ولكن رسول الله ﷺ الذي جبله الله تعالى على مكارم الأخلاق قد استقبل الأمر بحلم وهدوء مما أثار إعجاب ذلك الرجل وجعله مهيئاً لقبول ما سيدعوه إليه ، ولذلك ما إن بدأ النبي ﷺ كلامه بالمقدمة التي يستفتح بها بعض خطبه حتى أعلن ذلك الرجل أن الكلام الذي سمعه لا يشبهه ولا يدانيه كلام الشعراء ولا كلام الكهان والسحرة فأسلم في تلك الساعة .

وهذا شاهد على فصاحة النبي ﷺ وقوة بيانه ، وانبعاث كلامه من قلب مُليءَ إيماناً ويقيناً وحكمة ، حيث فاض ذلك على غُرر بيانه فأصبح آسراً لسامعيه ، وجاذباً لأصحاب القلوب المتجردة إلى اتباعه .

ولئن كان كثير من الناس اليوم لا يتأثر بهذا الكلام وأمثاله ، فهذا ليس لعيب في الكلام ، وإنما هو لتدني مستوى المتلقي في الذوق

والوجدان وفهم اللغة العربية ، أو لعدم صدور ذلك الكلام من قلب متأثر به أو لهما جميعاً .

وفي سرعة إسلام ذلك الرجل دلالة على أن الإسلام هو دين الفطرة وأن النفوس إذا تجردت من الضغوط الداخلية التي يحمل عليها اتباع الهوى ، والضغوط الخارجية التي من أبرزها هيمنة الطغاة من الأكابر الذين يرسخون في النفوس رهبتهم وتقديس مبادئهم الضالة في قلوب الناس من غير أن يكون لهم اختيار وتفكير . . إذا خلت النفوس من ذلك فإنها غالباً تتأثر وتستجيب ، إما بسماع قول مؤثر ، أو الإعجاب بسلوك قويم .

وفي طلب النبي ﷺ البيعة من ضماد لقومه دلالة على مبلغ اهتمامه ﷺ بدعوته ، وذلك باغتنام كل فرصة ينتج عنها تقدم في هذه الدعوة ، فقد لاحظ سرعة إقبال ذلك الرجل على الإسلام وقوة قناعته به ، فدفعه ذلك إلى أخذ البيعة منه لقومه ، وذلك وعد مؤكد منه بحمل قومه على الإسلام ، ولا شك أن من بايع النبي ﷺ نيابة عن قومه سيبذل كل ما يملك من طاقة في جذب قومه إلى هذا الدين .

وفي هذا بيان واضح لأهمية الدعوة إلى الله تعالى ، حيث جعلها النبي ﷺ قرينة الالتزام الشخصي ، فقد بايع ضماد رسول الله ﷺ على الالتزام بالدين ، فلم يكتف رسول الله ﷺ بذلك بل أخذ منه البيعة على دعوة قومه إلى الإسلام لأن دعوتهم متعينة عليه .

فالدعوة فرض كفاية ، إذا قام بها من يكفي سقط الوجوب عن بقية

الأمة ، وإذا لم يتم ذلك أثم كل من كان أهلاً لهذا الأمر ، وإذا تعينت على واحد بعينه كانت فرض عين كما هو الحال في هذا الخبر .

ومن المعلوم أن من دخل في الإسلام يكون في جو رَوْحَاني قوي ، ويدفعه الندم على ما فات من أيامه - وهو في ضلال - على مضاعفة الجهد في خدمة هذا الدين الذي هداه الله إليه ، فيكون لديه استعداد قوي لبذل الجهد في هذا المجال .

ويشبه هؤلاء المسلمين الجدد في هذه الحيوية والاندفاع نحو العمل المنحرفون من المسلمين الذين منَّ الله عليهم بالتوبة والهداية فإنهم لا يشعرون بانتمائهم الحقيقي للإسلام إلا بعد استنارة قلوبهم بالهدى ، ولذلك فإنهم يندفعون بقوة نحو العمل الصالح والدعوة إلى الإسلام .

وإن مما يُوصَى به مجالسة التائبين لاكتساب قوة الإيمان والحيوية الدافعة إلى العمل الصالح ، وفي ذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : جالسوا التوابين فإنهم أرقّ شيء أفئدة [١] .

وهنا تأتي براعة الموجهين في الدعوة حيث يحاولون جهدهم الإفادة من هذه الطاقات المتدفقة وتوجيهها نحو الالتزام الصحيح بالإسلام وبذل الجهد في دعوة الناس إليه ، وخاصة في مجتمع الأقران الذين كانوا قبل ذلك تجمعهم الزمالة والصداقة .

وهم في كل ذلك إنما يتأسون برسول الله ﷺ الذي كان يوجه الطاقات ويغتنم كل الفرص المتاحة للدعوة .

---

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل / ١٢٠ .

فهل يفهم المسلمون هذا المعنى الجليل فيسارعوا إلى بذل جهدهم في الدعوة إلي هذا الدين والدفاع عنه ؟ .

ويشبه خبر ضماد الأزدي من بعض الجوانب ما أخرجه ابن حبان رحمه الله من طريق سالم بن أبي الجعد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « جاء رجل من بني عامر إلى النبي ﷺ كأنه يداوي ويعالج فقال : يا محمد ، إنك تقول أشياء هل لك أن أداويك ؟

قال فدعاه رسول الله ﷺ إلى الله ثم قال له : هل لك أن أريك آية ؟ وعنده نخل وشجر ، فدعا رسول الله ﷺ عذقاً منها فأقبل إليه وهو يسجد ويرفع رأسه ويسجد ويرفع رأسه حتى انتهى إليه ﷺ فقام بين يديه ثم قال له رسول الله ﷺ : ارجع إلى مكانك ، فرجع إلى مكانه . فقال العامري : والله لا أكذبك بشيء تقوله أبداً . ثم قال : يا آل عامر ابن صعصعة ، والله لا أكذبه بشي يقوله » قال : والعذق : النخلة[1] .

فهذا الرجل العامري يتطبب ويعالج المرضى ، ولما سمع أهل مكة يتهمون رسول الله ﷺ بالجنون تقدم إليه وعرض عليه أن يداويه من ذلك

ولكن جواب رسول الله ﷺ للعامري اختلف عن جوابه لضماد الأزدي ، فقد كان جوابه لضماد يقوم على الفصاحة والبيان وجزالة المعاني ، وهذا يعني أن النبي ﷺ قرأ من حال ضماد أنه ممن يؤثر فيهم الأدب الرفيع والمعاني السامية فبادره بذلك الجواب الذي هز كيانه

---

(١) موارد الظمآن ٥٢٠ ، وذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه أبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن الحجاج الشامي وهو ثقة - مجمع الزوائد ٩/ ١٠ .

وأخضع جنانه ، وأمثال ضماد هم الأكثرون في حياة العرب آنذاك ولذلك كان جل دعوة النبي ﷺ قائماً على الإبداع في هذا المجال .

أما ذلك العامري ، فقد قرأ النبي ﷺ من حاله أنه من أهل العاطفة القوية والخضوع للأمور الحسية ، فعرض عليه آية مشاهدة تُخضع من رآها - ممن تجرد من الهوى - إلى الإذعان لها والتسليم لصاحبها بأنه ليس من البشر العاديين .

وهكذا تتنوع أساليب النبي ﷺ في الدعوة حسب فهمه لمداخل النفوس وطرق التأثير عليها ، فهو القدوة العليا في ذلك ، ومنه يجب أن تؤخذ مناهج الدعوة وأساليبها .

❊ ❊ ❊

١٥ - مثل من قدرة النبي ﷺ على اختراق حصار الأعداء

(إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي)

لقد كان حصار الأعداء لدعوة الإسلام شديداً محكماً، حيث لم يكتفوا بتنفير ساكني مكة من رسول الله ﷺ وتشويه سمعته عندهم بل صاروا يتلقون الوافدين إليهم ليسمِّموا أفكارهم وليحولوا بينهم وبين سماع كلامه والتأثر بدعوته.

وإن من أبرز الأمثلة على ذلك ما جرى منهم مع الطفيل بن عمرو الدوسي، وقد أخرج خبره محمد بن إسحاق رحمه الله حيث قال: وكان رسول الله ﷺ على ما يرى من قومه[1] يبذل لهم النصيحة ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه وجعلت قريش - حين منعه الله منهم - يحذِّرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب.

وكان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدِّث أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها فمشى إليه رجال من قريش، وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً، فقالوا له: يا طفيل إنك قَدمْتَ[2] بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما أمره كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته،

(١) يعني من العداوة والإيذاء.
(٢) وفي رواية أنهم قالوا: «إنك امرؤ شاعر سيد» - سير أعلام النبلاء ١/ ٣٤٥.

وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنَّه ولا تسمعنَّ منه شيئاً .

قال : فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه ، حتى حشوت في أذنيَّ حين غدوت إلى المسجد كُرْسفاً فرقاً[1] من أن يبلغني شيء من قوله ، وأنا لاأريد أن أسمعه . قال : فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة . قال : فقمت منه قريباً ، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله ، قال : فسمعت كلاماً حسناً ، قال : فقلت في نفسي : واثُكل أمي ؛ والله إني لرجل لبيب شاعر وما يخفى عليّ الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ! فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته .

قال : فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فأتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه ، فقلت : يا محمد ، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا ، للذي قالوا ، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك ، فسمعته قولاً حسناً ، فاعرض عليّ أمرك .

قال فعرض عليَّ رسول الله ﷺ الإسلام ، وتلا عليَّ القرآن ، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه . قال : فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت : يا نبي الله ، إني امرؤ مطاع في قومي ،

---

(١) كرسفاً : يعني قطنا ، وفرقاً : بفتح الراء يعني خوفاً .

وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال: اللهم اجعل له آية.

قال: فخرجت إلى قومي، حتى إذا كنت بثَنِيّة[1] تُطْلِعُني على الحاضر[2] وقع نور بين عيني مثل المصباح، فقلت: اللهم في غير وجهي، إني أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت في وجهي لفراقي دينهم. قال: فتحول فوقع في رأس سوطي، قال: فجعل الحاضر يتراءون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق، وأنا أهبط إليهم من الثنية، قال: حتى جئتهم فأصبحت فيهم.

قال: فلما نزلت أتاني أبي، وكان شيخاً كبيراً، قال: فقلت: إليك عني يا أبت، فلست منك ولست مني قال: ولِمَ يا بني؟ قال: قلت: أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ، قال: أي بني، فديني دينك، قال: فقلت: فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك، ثم تَعَالَ حتى أعلّمك ما عُلِّمت. قال: فذهب فاغتسل، وطهر ثيابه، قال: ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم.

قال: ثم أتتني صاحبتي[3]، فقلت: إليك عني، فلست منك ولست مني، قالت: لم؟ بأبي أنت وأمي، قال: قلت: قد فَرَّق بيني وبينك الإسلام، وتابعت دين محمد ﷺ، قالت: فديني دينك، قال: قلت:

---

(١) الثنية: المكان المرتفع.
(٢) يعني أهل بلده.
(٣) يعني زوجته.

فاذهبي إلى حنا ذي الشَّرَى فتطهري منه[1].

قال: وكان ذو الشرى صنماً لدَوْس، وكان الحمى حمىً حموه له، وبه وَشَل من ماءَ يهبط من جبل.

قال: فقالت: بأبي أنت وأمي، أتخشى على الصِّبْيَة من ذي الشَّرى شيئاً؟ قال: قلت: لا أنا ضامنٌ لذلك، فذهبت فاغتسلت، ثم جاءت فعرضتُ عليها الإسلام، فأسلمت.

ثم دعوتُ دَوْسا إلى الإسلام فأبطئوا عليّ، ثم جئتُ رسولَ الله ﷺ بمكة فقلت له: يا نبي الله، إنه قد غلبني على دَوْس الزنى[2]، فادع الله عليهم؛ فقال: اللهم اهْد دَوساً، إرجع إلى قومك فَادْعُهُم وارفق بهم.

قال: فلم أزل بأرض دَوْس أدعوهم إلى الإسلام، حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدر وأحد والخندق، ثم قدمت على رسول الله بمن أسْلَم معي من قومي، ورسول الله ﷺ بخيبر، حتى نزلتُ المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دَوس، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر، فأسهم لنا مع المسلمين.

ثم لم أزل مع رسول الله ﷺ، حتى إذا فتح الله عليه مكة، قال: قلت: يا رسول الله، ابعثني إلى ذي الكفين، صنم عمرو بن حُمَمَة حتى أحرقَه.

---

(١) قال ابن هشام: ويقال حمى ذي الشرى، وقال السهيلي: وهو موضع حموه لصنمهم ذي الشرى، فإن صحت رواية ابن إسحاق فالنون قد تبدل من الميم كما قالوا: حُلان وحلام للجدي، ويجوز أن يكون من حنوت العود، ومن مَحْنِيَّة الوادي وهو ما انحنى منه -الروض الأنف ٣/ ٣٧٦-.

(٢) وفي رواية أخرى «الزنى والربا» - سير أعلام النبلاء ١/ ٣٤٦.

قال ابن إسحاق: فخرج إليه فجعل طُفيل يوقد عليه النار ويقول:

ياذا الكَفَيْن لَستُ من عُبّادكا   ميلادُنا أقدمُ من ميلادكا

إني حشوتُ النار في فُؤَادكَا

قال ثم رجع إلى رسول الله ﷺ، فكان معه بالمدينة حتى قبض الله رسوله ﷺ. فلما ارتدت العربُ خرج مع المسلمين، فسار معهم حتى فرغوا من طليحة، ومن أرض نجد كلّها.

ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة، ومعه ابنُهُ عَمْرو بن الطُّفَيل، فرأى رؤيا وهو متوجّه إلى اليمامة، فقال لأصحابه: إني قد رأيت رؤيا فاعْبُرُوها لي، رأيت أن رأسي حُلق، وأنه خرج من فمي طائرٌ، وأنه لقيتْني امرأة فأدخلتني في فَرْجها، وأرى ابني يطلبني طلباً حثيثاً ثم رأيته حُبس عني، قالوا: خيراً.

قال: أمّا أنا والله فقد أوّلتها، قالوا: ماذا؟ قال: أمّا حَلْق رأسي فَوضْعه، وأما الطائر الذي خرج من فمي فَرُوحي، وأما المرأة التي أدخلتني في فرجها فالأرض: تُحفَرُ لي، فَأُغَيَّبُ فيها، وأما طلبُ ابني إياي ثم حَبْسه عني، فإني أراه سيَجْهَد أن يصيبه ما أصابني.

فقتل رحمه الله شهيداً باليمامة، وجُرح ابنه جراحة شديدة، ثم استبَلَّ منها، ثم قتل عام اليرموك في زمن عمر رضي الله عنه شهيداً [١].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٤٠١

وقد ذكر الحافظ ابن كثير هذه الرواية وقال: ولخبره شاهد في الحديث الصحيح، ثم ذكر حديث أبي هريرة الذي أخرجه الإمام أحمد والبخاري أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم اهد دوساً وائت بهم»[1].

يعني بذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي قال فيه «قدم طفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه على النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن دوساً عصت وأبت فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس، فقال: اللهم اهد دوساً وائت بهم»[2].

وهكذا رأينا مثالاً واضحاً للحجر الفكري الذي كان الكفار يمارسونه مع الدعوة الإسلامية في بداية عهدها، وقد استخدموا للتأثير على الناس ليصدوهم عنها مختلف الوسائل، فنجدهم كما في هذا المثال يتلقون الوافدين إلى مكة المكرمة، ويقومون بمحاولة تسميم أفكارهم وملئها بالباطل ليحول ذلك دون وصولها إلى الحق.

ونجدهم يخاطبون الناس بالأساليب المؤثرة عليهم كما في قولهم في إحدى روايات هذا الخبر للطفيل بن عمرو: إنك امرؤ شاعر سيد، فقد وصفوه بصفتين يعتز بهما العرب كثيراً وكأن لسان حالهم يقول: لقد تبوأت في عقولنا مكانة كبيرة لهذه المؤهلات فلا تُنزل نفسك من هذه المكانة الرفيعة بسماع ما يقوله مَنْ ليس في مستوى عقلك وتفكيرك،

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ٩٨.

(٢) صحيح البخاري رقم ٢٩٣٧ (٦/ ١٠٧) كتاب الجهاد، صحيح مسلم، فضائل الصحابة، رقم ٢٥٢٤ ص ١٩٥٧، مسند أحمد ٢/ ٢٤٣.

وحيث إن الطفيل عالم بالشعر والكهانة فقد اختاروا وصفاً آخر ينطلي عليه وعلى أمثاله وهو السحر وسوغوا ذلك بكون رسول الله ﷺ يفرق بين الأحبة على حد زعمهم.

وهكذا نجد دعاة الباطل في كل زمن يصورون دعاة الحق على أنهم إرهابيون وعواصف مدمرة، ليكسبوا الناس إلى صفهم، فما يزال البسطاء والإمَّعات الذين ألفوا التبعية والتقليد وعطلوا جانباً كبيراً من عقولهم.. ما يزالون يرددون كلامهم وينفرون الناس من دعاة الحق.

ولقد تأثر الطفيل بن عمرو بكلام زعماء الكفار في مكة لما سبق أن استقر لهم من مكانة وسمعة عالية بين العرب باعتبار أنهم جيران الحرم وحراس المشاعر المقدسة حتى بلغ به الخوف من النبي ﷺ إلى حد أنه سد أذُنيه بالقطن حتى لايسمع نداء الحق.

وإذا كان الطفيل قد سد أذنيه حقيقة فما أكثر من فتحوا آذانهم ولكنهم سدوا منافذ فكرهم وعطلوا عقولهم فأصبحوا يسمعون صوت الحق ليل نهار فما يوقظ فيهم ضمائر ولا يُحْيي فيهم مواتاً.

ولكن هل استطاع الكفار أن يحولوا بين الناس وسماع دعوة الحق؟

إنهم لم يستطيعوا ذلك لأن صوت رسول الله ﷺ كان أقوى من أصواتهم، ووسائلَه في التبليغ كانت أبلغ من وسائلهم، وثباتَه على مبدئه السامي كان أعلى بكثير مما كان يتوقعه أعداؤه.

فالشيء الذي يجب أن يفكر به الدعاة وأن يجابهوا به الأعداء هو تطوير وسائلهم في التبليغ إلى الحد الذي يفوق وسائل الأعداء في صد

هذا التبليغ، لأن الحيلولة بين الأعداء والوصول إلى الناس بالتضليل أمر غير ممكن غالباً، وهكذا فعل رسول الله ﷺ حيث تمكن من رفع صوت الإسلام، بالرغم من قوة أعدائه وكثرتهم.

فالرسول ﷺ لم يقبع في بيته، ولم ينزو في زاوية من زوايا المسجد الحرام، ليستخفي بدعوته، وليقي نفسه من سهام أعدائه المسمومة، بل إنه غامر بنفسه فكان يخرج إلى مضارب العرب قبل أن يفدوا إلى مكة، وكان يجهر بتلاوة القرآن في المسجد الحرام ليسمع من كان في قلبه بقية من حياة، وأثارة من حرية وإباء، فيتسربَ الهدى إلى مجامع لبه، وسويداء قلبه.

وكان من هؤلاء صاحبُ هذه القصة الطفيل بن عمرو الدوسي الذي أدرك حال سماعه أن ما تلاه النبي ﷺ هو الحقُّ فأعلن إسلامه، وقد هيأ له ذلك كونه متجرداً من اتباع الهوى ومتحرراً من ضغط السادة والزعماء.

فكم من إنسان في مكة آنذاك يدرك أن ما يدعو إليه رسول الله ﷺ هو الحقُّ الذي لا مرية فيه، ولكن يمنعه من اتباعه وقوعه تحت ضغط الطغاة الذين يهددونه في حياته أو في مصالحه الدنيوية.

وكان إيمان الطفيل قوياً إلى الحد الذي تخطى به مجرد الالتزام الشخصي بتطبيق الإسلام، إلى الانطلاق به ودعوة قومه إليه فاستأذن النبي ﷺ في الرجوع إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام.

وكم من مسلم يظل عمره كله في مرحلة الالتزام الخاص ولا يتحول إلى الدعوة، وهذا مظهر من مظاهر ضعف الإيمان إذا كان ممن تعينت

عليهم الدعوة، ويكون الوضع منكراً ومزرياً حينما يتخلى عن الدعوة من ينتسبون إلى العلم الديني مع احتياج الساحة الإسلامية إليهم، بل إن تخصصهم في هذا المجال وبعدهم عن الدعوة فيه شيء من التناقض، وقد يُعتبرون بواقعهم هذا فتنة للناس ومدعاة للصدود عن الدعوة.

أما حينما تكون الدعوة فرض كفاية على المسلم فإنه حينما يتخلى عنها يكون قد حرم نفسه من باب كبير من أبواب الخير.

وإن ما أجرى الله تعالى على يدي الطفيل من هذه الكرامة حيث أضاء له طرفُ سوطه واستجاب الله دعاءه يعتبر كرامة لهذا الولي رضي الله عنه ومعجزة للنبي ﷺ الذي دعا له بذلك، وقد قدر الله تعالى وقوع ذلك لدعم الدعوة الإسلامية وتثبيت الدعاة.

وحين مارس الطفيل دعوته فلم يستجب له غالبية قومه أصابه شيء من اليأس منهم، فجاء إلى النبي ﷺ يشكوهم ويطلب منه أن يدعو عليهم، ولما كان ذلك من التعجل في الحكم على المدعوين واستظهار نتائج الدعوة المنافي لما تتطلبه الدعوة من الصبر والأناة فإن النبي ﷺ قد أجابه بضد ما طلب حيث دعا لهم بالهداية، وهذا يعتبر من أمثلة اتصاف النبي ﷺ بالتأني والصبر إلى جانب اتصافه بالشفقة والرحمة والرغبة العظيمة في هداية الناس.

وإن ما ذكره الطفيل من توغل قومه في الزنى والربا، وأن ذلك منعهم من الدخول في الإسلام يعتبر واقعاً ملموساً في حياة الناس، حيث إن الوقوع في الشهوات المحرمة يترتب عليه قسوة القلوب وانغلاق

منافذ الفكر أحياناً بحيث لايحب المصاب بذلك سماع دعوة الحق التي ستحول بينه وبين الاستمرار فيما هو متوغل فيه من المعاصي .

ولذا فإن مما يختصر الطريق على الدعاة ويعينهم كثيراً على الوصول إلى قلوب الناس ان تُبذَل جهود مكثفة للحيلولة بين الشباب والوصول إلى مواقع الفتنة ، وذلك بإزالة معالم الجاهلية المتمثلة بدُور البغاء والملاهي المحرمة ، وحانات الخمور ومعاقل الربا ونحو ذلك من مظاهر الجاهلية .

هذا وإنّ امتناع قوم الطفيل عن الإسلام لأنه يمنعهم من الربا والزنى دليل على أنه كان في حس أهل الجاهلية وشعورهم أن دخول الإنسان في الإسلام يعني التزامه حالاً بأحكامه ، وامتناعه من المنكرات المحرمة ، ولم يكن في مفهومهم أن يدخل الإنسان في الإسلام ثم يستمر في ممارسة ما كان يمارسه من الشهوات المحرمة ، وإنهم بذلك أعظم فهماً للإسلام من عصاة المسلمين الذين يجمعون بين إعلان الإسلام والإصرار على المنكرات التي نهى الله تعالى عنها .

وحينما كثر المؤمنون من قوم الطفيل ورأى أنه قادر على إزالة الرمز الأكبر للجاهلية في بلاده وهو صنم «ذي الكفَّين» استأذن النبي ﷺ في أن يزيله فأجابه النبي ﷺ بما يبين أهمية ذلك وضرورته .

وسيأتي مزيد بيان في شرح هذا الموضوع بإذن الله تعالى في أحداث فتح مكة حيث أزال رسول الله ﷺ جميع الأصنام .

١٦ - لون آخر من الصد عن سبيل الله

(خبر أعشى بني قيس)[*]

قال ابن هشام رحمه الله : حدثني خلاد بن قرة بن خالد السدوسي وغيره من مشايخ بكر بن وائل من أهل العلم : أن أعشى بني قيس بن ثعلبة بن عكاية بن مصعب بن علي بن بكر بن وائل خرج إلى رسول الله ﷺ يريد الإسلام فقال يمدح رسول الله ﷺ :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ... وبتّ كما بات السليم مسهدا[١]

إلى أن قال :

وآليت لا آوي لها من كلالة ... ولا من حَفًى حتى تلاقي محمدا[٢]

نبياً يرى مالاترون وذكره ... أغار لعمري في البلاد وأنجدا[٣]

له صدقات ما تَغبّ ونائل ... وليس عطاء اليوم مانعه غدا

أجدّك لم تسمع وُصَاة محمد ... نبي الإله حين أوصى وأشهدا

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على أن لاتكون كمثله ... فتُرصِد للأمر الذي كان أرصدا

(*) هذا الخبر محله بعد الهجرة ولكنه قُدم لتناسب موضوعه مع الموضوعين السابقين .

(١) السليم يعني اللديغ سمي بذلك تفاؤلاً ، والسهاد الأرق .

(٢) يعني حلف أن لا يعبأ بتعب ناقته ولا بتأثر أخفافها حتى يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) أغار يعني بلغ البلاد المنخفضة كتهامة ، وأنجد يعني بلغ البلاد المرتفعة كنجد .

فــإياك والمَيْــتَــات لاتقــربنَّهــا ولاتأخُذَنْ سهـماً حديداً لتفصدا[1]
وذا النُّصُب المنصــوب لاتَنسُكنَّه ولاتعبــد الأوثان والله فـاعـبـدا[2]
ولاتقــربنَّ حــرة كــان ســرُّها عليك حـرامـاً فـانكحنْ أو تـأبّدا[3]
وذا الرحم القــربَى فــلا تقطعنَّه لعــاقـبــة ولا الأسـيــر المقـيــدا
وسبح على حين العشيات والضحى ولاتحمـد الشيطان والله فـاحـمدا
ولاتســخـرنْ من بائس ذي ضــراوة ولاتحــسبنَّ المال للمــرء مُــخلدا

قال: فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه بعض المشركين من قريش، فسأله عن أمره فأخبره بأنه جاء يريد رسول الله ﷺ، فقال له: يا أبا بصير إنه يُحرِّم الزنى، فقال الأعشى: والله إن ذلك لأمر مالي فيه من أرَب، فقال له: يا أبا بصير فإنه يحرم الخمر، فقال الأعشى: أما هذه فوالله إن في النفس منها لعلالات، ولكني أنصرف فأتروى منها عامي هذا ثم آتيه فأسلم، فانصرف فمات في عامه ذلك، ولم يعد إلى رسول الله ﷺ[4].

وهكذا رأينا مثالاً من صد المشركين عن الإسلام، وهو مثال مغاير للأمثلة السابقة، حيث كانت تلك الأمثلة تقوم على تشويه سمعة النبي ﷺ باتهامه بالجنون والسحر والكهانة، وقد كانت هذه الاتهامات تقوم بدورها في السنوات الأولى من ظهور الدعوة الإسلامية، أما بعد أن انتشرت وعرف القاصي والداني أن رسول الله ﷺ يدعو إلى دين جديد، وأنهُ أكمل الناس عقلاً وأعظمهم أخلاقاً، فإن تلك الاتهامات لم تعد

---

(١) يعني لا تفصد العرق وتشرب الدم كما كان يفعل بعض أهل الجاهلية.
(٢) يعني لا تذبح على الحجارة للأصنام ولا تعبدها من دون الله تعالى.
(٣) سرها يعني نكاحها والتأبد التعزب واعتزال النساء.
(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٤٠٦.

صالحة لصد دعوة الإسلام خصوصاً إذا كان الوافدون قد دخل الإعجاب بالإسلام قلوبهم، وأشادوا بذكره كهذا الشاعر المشهور.

لذلك لجأ الكفار إلى محاولة غزو الإسلام من داخله وذلك بعرض بعض أحكامه التي تقاوم شهوات النفوس التي تريد الانطلاق بغير حدود، فلذلك ذكروا للأعشى أن الإسلام يحرم الزنى وهم يعلمون صعوبة الإقلاع عن هذه الفاحشة لمن توغل فيها، ولما أجابهم بخواء نفسه من الرغبة في ذلك لكبر سنه ذكروا له فاحشة أخرى لايُقَلِّص من الرغبة فيها تقادم السن حيث يظل مدمنو الخمر متعلقين بها حتى يوافيهم الأجل، فكان ذلك كافياً لصد الأعشى عن الدخول في الإسلام.

لقد حاول الكفار بهذا أن يثيروا غرائز بعض المتوغلين في الشهوات ليصدوهم بذلك عن الإسلام، ولكن أنَّى لهم ذلك والحق نور أبلج، وأنوار الإسلام قد اكتسحت ظلمات الجاهلية.

فلئن استطاعوا أن يردوا بذلك أفراداً عن الإسلام من ذوي الاتجاه المنحرف والأنانية المفرطة، فلقد استطاع النبي ﷺ بتوفيق الله تعالى له، ثم بحكمته العالية، ومنطقه الرصين، ومحتوى دعوته المتين، أن يؤثر على جماعات من الناس من ذوي العقول الراجحة والأفكار النيرة.

وما هذه الشهوات التي يثيرها الأعداء إلا مظاهر للأنانية البغيضة، والغرائز الجامحة، التي تتحكم فيها العواطف المنحرفة، ولاتحكمها العقول السليمة.

وفي مقابل ما يقوم به الأعداء من وصم الإسلام بالمنع من هذه الشهوات المحرمة واستخدام ذلك في التنفير منه نجد رسول الله ﷺ مثلاً يبين عظمة الإسلام في تحريم الزنى كما روى أبو أمامة رضي الله عنه قال: إنَّ فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنى، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا له: مه مه، فقال رسول ﷺ: ادنه، فدنا منه قريباً، قال: فجلس، قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أتحبه لأختك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم.

قال: فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[1].

فقد بين النبي ﷺ لذلك الفتى أن جريمة الزنى أنانية حاقدة، واعتداء مهين على أعراض الآمنين الذين لايرضونه لقريباتهم، من أمهات أو بنات أو أخوات أو عمات أو خالات، فإذا ارتكب المجرم هذه الجريمة فإنه لم يعتد على المرأة وحدها وإنما اعتدى على جميع أقاربها، وإذا كان

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٢٥٦-٢٥٧.

الإنسان يغار على قريباته فإن الناس أيضاً يغارون على قريباتهم .

وهكذا تنوعت النظرة إلى الزنى حسب صحة القلوب ومرضها ، فمرضى القلوب يرونه مفخرة يعتزون بها ، كما يرونه عيباً في الإسلام الذي منعه ، بينما يراه أصحاء القلوب جريمة تروع الآمنين من أصحاب العفة والصيانة ، وتفسد المجتمع الصالح .

ولقد استطاع النبي ﷺ بهذه الموعظة الحكيمة أن يزيل الغشاوة عن عقل ذلك الفتى فأصبح يفكر بعقله السليم ، فأخمد غريزته الجامحة التي استسلمت لنداء العواطف المنحرفة وأصبح يشعر باشمئزاز من الزنى بعدما كان أحب شيء إليه .

إن أعداء الإسلام يعْرِضون أحكام هذا الدين التي نزلت لحماية الإنسان من تجاوزات نفسه الأمارة بالسوء ، فيما ينتج عنه الإضرار بالنفس والغير . . يعرضونها مجردة عن فهم حكمها العالية ، ومقاصدها في تهذيب النفوس وتقويمها ، وتخليصها من سلوكها المنحرف وتطهير المجتمع بأكمله من مصادر الضرر الواقع على العقول والأجسام والأموال .

وحينما تلامس هذه الدعاوى المغرضة نفوساً مشبعة باقتراف هذه المنكرات ، خالية الذهن من تصور أخطارها المدمرة على مستوى الفرد والمجتمع فإن هذه الدعاوى يكون لها أثر بالغ في الصد عن الإسلام .

وهكذا نجد أعداء الإسلام في كل زمن يحاولون تنفير المجتمع من التأثر بدعوة المصلحين ، بهذه السهام المسمومة وأمثالها ، حيث يحاول

المصلحون رفع المجتمع الإسلامي من استعباد الشهوات لتنطلق عقول المسلمين في التفكير السليم نحو تكوين المجتمع السعيد في الدنيا، والمؤهل لنيل السعادة في الآخرة، ولكنهم يجدون من دعاة الإفساد الذين يحاولون الهبوط بالمجتمع نحو تلبية نداء الغرائز الحيوانية، وتكبيل العقول الحرة بالقيود التي تجعلها تسلم قيادها للعواطف المنحرفة.. يجدون من هؤلاء عنتاً وتعويقاً دائماً لكل مشاريع الخير والإصلاح.



١٧ - مثل من مساومة أهل الباطل وإصرار أهل الحق

لقد حرص زعماء الكفار على التأثير على النبي ﷺ ليترك دعوته أو ليتنازل عن بعضها مما يريدون منه، فمارسوا معه من أجل ذلك أنواعاً من الأذى، وجربوا معه ومع أتباعه فتنة التخويف، فلما لم ينجحوا في التأثير عليه تحولوا إلى فتنة التأليف فحاولوا مساومته بأنواع من المغريات الدنيوية في مقابل التنازل منه عما يغيظهم من دعوته.

وقد اجتمعوا يوماً فتشاوروا في أمره، واستقر رأيهم على إرسال واحد منهم لمحاورة رسول الله ﷺ وإغرائه بالمغريات المادية التي يتنافس الناس عليها عادة من أجل أن يتنازل عن تصلبه في دعوته، وأن يترك التعرض لأصنامهم وما استقر عليه أمرهم مما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم.

وقد انتدب لهذا الأمر عتبة بن ربيعة، وهو معروف عندهم بالحلم والتعقل.

أخرج الإمام البيهقي من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال أبو جهل والملأ من قريش: لقد انتشر علينا أمر محمد فلو التمستم رجلاً عالماً بالسحر والكهانة والشعر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره.

فقال عتبة: لقد سمعت بقول السحرة والكهانة والشعر وعلمت من ذلك علماً، وما يخفى علي إن كان كذلك، فأتاه، فلما أتاه قال له عتبة:

يا محمد أنت خير أم هاشم، أنت خير أم عبدالمطلب، أنت خير أم عبدالله ؟ فلم يجبه.

قال: فبم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا ؟ فإن كنت إنما بك الرئاسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأسنا ما بقيت، وإن كانت بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي أبيات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني بها أنت وعقبك من بعدك، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم.

فلما فرغ قال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[١].

---

(١) سورة فصلت: (١-١٣).

فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه، ولم يخرج إلى أهله واحتبس عنهم.

فقال أبو جهل: يا معشر قريش والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته، انطلقوا بنا إليه، فأتوه فقال أبو جهل: والله يا عتبة ما حسبنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب وأقسم بالله لايكلم محمداً أبداً.

قال: ولقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً، ولكني أتيته - فقص عليهم القصة - فأجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا شعر ولا كهانة، قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ - حتى بلغ - ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ** ﴾ فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب[1].

وأخرجه ابن إسحاق في السيرة من خبر محمد بن كعب القرظي وذكر نحوه، وجاء في آخره: فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به،

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٠٣، ورواه الحاكم بنحوه وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي - المستدرك ٢/ ٢٥٣-٢٥٤، وذكره الهيثمي من حديث جابر رضي الله عنه بنحوه وقال: رواه أبو يعلى وفيه الأجلح الكندي وثقه ابن معين وغيره وضعفه النسائي وغيره وبقية رجاله ثقات - مجمع الزوائد ٦/ ١٩ - وحسن الشيخ الألباني إسناده - هامش فقه السيرة للغزالي / ١١٣.

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم[1] .

وهكذا قام عتبة بمحاورة رسول الله ﷺ ليؤثر عليه في التخلي عن دعوته أو ليخفف منها، فأتاه وناقشه وأراد أن يحرجه بالمفاضلة بينه وبين آبائه فلم يجبه النبي ﷺ لأنه يريد هدايته كما أن عتبة يريد إضلاله، فلو أجابه بالحكم على آبائه بالضلال لنفر منه، فكانت الحكمة تقتضي عدم الإجابة على سؤاله.

لقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يقول لعتبة بل أنا أفضل من أبي وسائر أجدادي، ولو قال ذلك لم يَعْدُ الحقيقة لأنه سيد الخلق أجمعين، ولكنه بانشغاله بهذا الحوار الجانبي يتيح لعتبة فرصة الهجوم المضاد الذي يدفع إليه ما توارثه المشركون من تقديس الآباء والأجداد، وبذلك تضيع الفرصة الذهبية التي قصد إليها رسول الله ﷺ من محاولة هداية عتبة، خصوصاً وأنه قد جاء وحده وكلُّه رغبة في الوصول إلى تغيير الوضع القائم آنذاك.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٣٩ .

ولو أنه ﷺ أثنى على آبائه بما فيهم من صفات الخير من غير أن يفضلهم على نفسه لم يكن قد جاوز الحقيقة، ولكنه في ذلك يتيح الفرصة لعتبة لإلزامه بما يترتب على ذلك من اتباع دينهم، وهذا هو الأمر الذي استبعده النبي ﷺ، فكان يريد إغلاق هذا الباب لينتقل إلى ما أراده من دعوته إلى الهداية.

وقد يقال: إن عدم الإجابة تعتبر اعترافاً بالعجز، ولكنها في الحقيقة غير ذلك لأن عدم الإجابة في مثل هذا الحوار تعني أن السؤال لا يستحق الإجابة لأنه ليس في صميم الموضوع، وهكذا فهم عتبة لَمَّا أعرض عن متابعة لوازم ذلك السؤال وانتقل إلى سؤال آخر.

وفي هذا توجيه حكيم للداعية الذي يبتلى بالحوار مع الكفار وأشباههم ممن ينتسبون إلى الإسلام وهم يحاربون دعوته ودعاته، وذلك بأنه يشرع له أن لايكون صريحاً معهم في إجاباته كلها، وأن لايلتزم بيان الحقيقة في الأمور الجانبية التي لاتشتمل على كتمان الحق، وهي في نفس الوقت تؤثر على حواره معهم ومستقبل دعوته، بل يُطلب منه أن يتجاوز هذه الأمور بما تقتضيه الحكمة وتقديرُ الموقف، ليخلص إلى صلب الموضوع الذي انبثق عنه الخلاف وعقد من أجله الحوار.

بل إن في هذا توجيهاً للدعاة في الحوار الذي يجري بينهم حيث يتجه بعض قصار النظر إلى إشغال ساحة الدعوة بالمفاضلة بين قادة الدعوة، فينتج عن ذلك تتبع لأخطائهم وتشويه لسمعتهم، مما يزيد من شقة الخلاف الدائر بين أتباع أولئك القادة، ويُشغِل عن بحث أمور المسلمين المهمة التي يجب أن يجتمع عليها الدعاة.

وبغضّ النظر عن الفارق الجوهري بين المشبه والمشبه به من حيث كونُ طرفي المفاضلة في المشبه من المسلمين، وكونُ أحد الطرفين في المشبه به من الكفار، فإن النتائج المترتبة على انتقاص بعض قادة الدعوة تؤدي إلي ما يشبه النتائج التي أرادها عتبة بن ربيعة في حواره المذكور.

ولما أمسك رسول الله ﷺ عن إجابة عتبة على الأسئلة المذكورة أدرك عتبة أنه قد أساء الأدب بإحراج النبي ﷺ في ذلك، وعتبة إنما جاء سفيراً عن قريش ليصل إلى أي حل يخفف من شدة الخلاف الدائر بينهم وبين المسلمين، وكونه يواجَهُ بالصمت من رسول الله ﷺ يعتبر هزيمة له أمام الملأ من قريش، فلهذا ضرب صفحاً عن ذلك الحوار، ولم يحاول إلزام النبي ﷺ بنتيجته مع مالاح في الأفق من مظاهر نجاحه المتخيلة.

وانتقل عتبة حالاً إلى عرض ما في جعبته من تلك العروض المغرية من المال والرئاسة وما شاء من الشهوات في مقابل أن يتخلى النبي ﷺ عن دعوته أو أن يفاوض المشركين في البقاء على دعوة لاتؤثر على دينهم الذي يقدسونه.

وهكذا عرض عتبة بن ربيعة على رسول الله ﷺ تلك العروض المغرية، فماذا كان جوابه عليه ؟

لقد كان جوابه بتلاوة آيات من كتاب الله تعالى كان لها الأثر الحاسم في إنهاء الحوار لصالح الإسلام.

وقد كان عتبة موصوفاً بالحلم والحكمة فكان رسول الله ﷺ يؤمل في إسلامه بعد سماع الآيات القرآنية.

ولقد تأثر عتبة من سماع كلام الله تعالى حيث وصف القرآن الذي سمعه بقوله «قد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة» فأثبت أن القرآن لامثيل له، وهذا اعتراف منه بأنه ليس من كلام البشر، ثم نفى التهم الثلاث التي ألصقها قومه برسول الله ﷺ ووصفوا القرآن بها.

وكان في كمال عقله وإدراكه حينما أشار على قومه بترك رسول الله ﷺ وشأنه في الدعوة، وإثبات أن عزه يعتبر عزاً لقريش فيما إذا نجح في دعوته وساد العرب.

وهكذا حينما كان عقلاء قريش يرجعون إلى عقولهم يدركون عظمة هذا الدين وصدق رسول الله ﷺ وتميز ما جاء به من الوحي على كلام البشر، ولكنهم سرعان ما تغلبهم عواطفهم وأهواؤهم المنحرفة فينطقون بكلام لايعتقدون بقلوبهم محتواه، وإنما يدفعهم إليه الحسد والهوى المنحرف.

وفي هذا الخبر مثل من نجاح النبي ﷺ في اختيار الآيات المناسبة للمقام، كما أنه مثال لقدرته الفائقة في التأثير على السامعين بتلاوته كتاب الله تعالى حيث يتلوه بكل مشاعره وأحاسيسه وهو يستحضر عظمة الله تعالى الذي خاطبه وأمته بهذا القرآن العظيم.

وهكذا ينبغي للدعاة أن يهتموا باختيار النصوص المناسبة وأن يعرضوها بقلوبهم مع ألسنتهم مستحضرين عظمة الله تعالى وجلاله حتى يكون أبلغ في التأثير على المخاطبين.

لقد تأثر عتبة بسماع القرآن ومال إلى الإسلام ولكن أبا جهل عرف كيف يؤثر عليه بلمزه من الجانب الذي ينفره من الإسلام، فهو ممن يعتز بسمعته وجاهه، فاتهمه أبو جهل بأنه مال إلى رسول الله ﷺ من أجل أن يصيب من طعامه، وكان ذلك كافياً لإحداث أثر مضاد للأثر الأول، فأخذته الحَميَّة وأقسم أن لايكلم رسول لله ﷺ.

وهكذا رأينا في تصرف أبي جهل مثلاً من أمثلة الكيد والمكر التي يتقنها أعداء الإسلام ويخططون لها، حيث إنهم يقومون بدراسات دقيقة لمعرفة مداخل النفوس وإدراك مواطن الضعف فيها ليدخلوا إلى الإنسان من هذه المواطن.

ولما لم تُجْد محاولة عتبة بن ربيعة ولم تصنع شيئاً مما أراده زعماء مكة من صرف النبي ﷺ عن دعوته بتلك المغريات اتفق رأيهم على عقد اجتماع لمجموعة منهم ليقوموا جميعاً بحوار النبي ﷺ في هذا الموضوع، وقد أخرج خبر ذلك الإمام ابن إسحاق من حديث سعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اجتمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر ابن الحارث بن كَلَدة أخو بني عبدالدار، وأبو البَختَري بن هشام، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام، وعبدالله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبِّه ابنا الحجّاج السَّهْميّان، وأمية بن خلف، أو من اجتمع منهم.

قال : اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تُعْذروا فيه[1] ، فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فأتهم .

فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً ، وهو يظن أن قد بَدَا لهم فيما كلّمهم فيه بَدَاءٌ[2] ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدَهم ويعزّ عليه عَنَتُهم[3] حتى جلس إليهم ؛ فقالوا له : يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لنكلّمك ، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدْخل على قومه مثلَ ما أدخلتَ على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفّهت الأحلام ، وفرّقت الجماعة ، فما بقي أمرٌ قبيح إلا قد جئْتَه فيما بيننا وبينك - أو كما قالوا له - فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تَطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا[4] ، وإن كنت تريد به مُلكاً ملّكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً تراه قد غلب عليك -وكانوا يسمون التابع من الجن رئياً- فربما كان ذلكَ بذلنا لك من أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه . أو نُعذر فيك .

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما بي ما تقولون ، ما جئتُ بما جئتكم به أطلبُ أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا المُلك عليكم ولكنّ الله بعثني

---

(١) أي تبلغوا منه العذر .
(٢) أي ظهر لهم في شأنه أمر .
(٣) يعني مشقتهم .
(٤) نجعلك سيداً .

إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلَّغْتُكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به فهو حظكم في الدنياوالآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم - أو كما قال رسول الله ﷺ - .

قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منّا شيئاً مما عَرَضْناه عليك فإنك قد علمتَ أنه ليس من الناس أحدٌ أضيق بلداً، ولا أقلّ ماء، ولا أشدّ عيشاً منّا، فَسلْ لنا ربّك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنّا هذه الجبالَ التي ضيَّقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجّر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يَبْعثُ لنا منهم قصيّ بن كلاب، فإنه كان شيخَ صدْق، فنسألهم عما تقول: أحقّ هو أم باطل فإن صدّقوك وصنعتَ ما سألناك صدّقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه: ما بهذا بعثت إليكم إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بَلَّغْتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فخُذْ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك مَلَكاً يصدّقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسَلْه فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يُغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم وتلتمس المعاش كما نلتمس، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربَّه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً -أو كما قال- فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فأسقط السماء علينا كسَفاً[1] كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنّا لانؤمن لك إلا أن تفعلَ، قال: فقال رسول الله ﷺ : ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل.

قالوا: يا محمد، أفعلم ربُّك أنّا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدّم إليك فيُعلمك ما تُراجعنا به، ويخبرك ما هو صانعٌ في ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به! إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجلٌ باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا والله لانؤمن بالرحمن أبداً فقد أعْذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لانتركك وما بلغتَ منّا حتى نُهْلكك أو تُهْلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة، وهي بنات الله. وقَال قائلهَم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً[2].

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم، وقام معه عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته، فهو لعاتكة بنت عبدالمطلب فقال له: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم

---

(١) جمع كسفه بكسر فسكون بمعنى القطعة من الشيء.
(٢) مقابلة ومواجهة بحيث نراهم عياناً.

تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله - كما تقول - ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل - أو كما قال له - فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سُلَّماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصَكّ معه أربعةٌ من الملائكة يشهدون لك كما تقول، ثم وايم الله، لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك.

ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً آسفاً؛ لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دَعَوْه، ولِمَا رأى من مباعدتهم إياه.

فلما قام عنهم رسول الله ﷺ قال أبو جهل: يا معشر قريش، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون: من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسنَّ له غداً بحجر ما أطيق حمله - أو كما قال - فإذا سجد في صلاته فَضَخْتُ به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لانُسْلمك لشيء أبداً، فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو. وكان رسول الله ﷺ بمكة وقبلتُه إلى الشام، فكان إذا صلى صلى بين الركن اليماني والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، فقام رسول الله ﷺ يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سَجَد

رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجَع منهزماً مُنْتَقَعاً[1] لونه مرعوباً قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده.

وقامت إليه رجال قريش، فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت عَرَض لي دونه فَحْلٌ من الإبل، لا والله ما رأيت مثلَ هامته، ولا مثل قَصَرته[2] ولا أنيابه لفحْل قطُّ، فهمَّ بي أن يأكلني.

قال ابن إسحاق: فذُكر لي أن رسول الله ﷺ قال: ذلك جبريل عليه السلام، لو دنا لأخذه.

فلما قال لهم ذلك أبو جهل قام النضر بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي[3] فقال: يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صُدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به، قلتم ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السَّحَرَة ونفثهم وعقدهم، وقلتم كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم، وقلتم شاعر لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها: هزجه ورَجزه، وقلتم

---

(١) يعني مصفراً متغيراً وهو على زنة اسم المفعول من انتقع المبني للمجهول ويقال بالميم أيضاً.

(٢) القصرة بفتحات أصل العنق.

(٣) قال ابن هشام: ويقال النضر بن الحارث بن علقمة بن كَلَدَة بن عبد مناف.

مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولاتخليطه، يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم[1].

هذا وإنا لنجد في هذا النص مثلاً من حرص النبي ﷺ على إسلام قومه حيث علم باجتماع أشرافهم فسارع إليهم ليجدد دعوتهم إلى الدين الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة بالرغم مما نالوا منه من الأذى، وفي هذا دلالة على لزوم استصحاب الرغبة في هداية الناس وإن سبقت منهم مواقف مؤذية لصاحب الدعوة أو لأتباعه، لأن دعوة الإسلام لاتقوم على الرغبة في الانتقام من الأعداء، وإنما تقوم على الرحمة الشاملة بجميع الناس، والرغبة الملحة في هداية الضالين، وانتشالهم من الدرك السحيق الذي أوقعوا أنفسهم فيه.

فالداعية الحق ينظر إلى من يقومون بأذيته وتعذيبه نظرة إشفاق ورحمة، ويتمنى من قرارة قلبه أن ينقذهم من الهلاك الذي تردوا فيه وأن يحميهم من السلوك الذميم الذي ساروا فيه .

إن الداعية وهو يتلقى الأذى من المدعوين يشعر بأنه يكتسب عملاً صالحاً بالصبر على أذاهم، ولكن عليه أيضاً أن يشعر بأن الذين يقومون بإيذائه وصدّ دعوته يكتسبون عملاً سيئاً وسيحاسبون عليه يوم القيامة،

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٥ - ٣٠٠، وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق وذكر مثله - تفسير الطبري ١٥/ ١٦٦ - وذكره الحافظ ابن كثير وسكت عنه - البداية والنهاية ٣/ ٤٨ -.

وأن يعلم أن محاولة هدايتهم عمل صالح يضاف إلى العمل السابق ، فإذا صبر على أذاهم ثم قام بمحاولة هدايتهم يكون قد جمع بين عملين صالحين .

ونجد في هذا النص أن المشركين بدءوا حوارهم مع النبي ﷺ بالهجوم عليه في دعوته حيث اتهموه بشتم آبائهم وعيب دينهم ، وتسفيه أحلامهم ، وشتم آلهتهم وتفريق جماعتهم ، وأنه اقترف معهم كل قبيح .

وهذا الهجوم يقصدون من ورائه إضعاف شخصيته وإرباك موقفه حتى يقبل منهم واحداً من عروضهم التي سيعرضونها عليه .

وقد عرضوا عليه أموراً ثلاثة : أحدها يتعلق بحب المال ، والآخَرَين يتعلقان بحب الجاه ، فعرضوا عليه أولاً أن يجمعوا له من أموالهم حتى يكون أكثرهم مالاً إن كان من الذين يستهويهم جمع المال واقتناؤه ، أو أن يسودوه عليهم فيكون سيد قبيلتهم ، أو أن ينصبوه ملكاً عليهم إن كان ممن يستهويهم الشرف والجاه .

وبهذا يكونون قد حققوا أعلى درجات الشرف والجاه له إن كان ممن يحبون المسؤلية ، أو الغنى الكبير بدون نصب وعناء بجمع المال إن كان ممن لايحبون تحمل المسؤلية .

وهـذه عـروض مغريـة حقـاً لأصحـاب الدنـيا لأن الهـدف الأعلى الذي يسعى له طـلاب الدنـيا يتلخـص في طلـب المال أو الجاه أو طلبهما معاً.

وفي هذا العـرض الثاني والثـالث يبدي زعـمـاء قريش استـعـدادهم للتنازل عن منهـجـهـم في الحكم والسـيـادة من أجل رسـول الله ﷺ إن وافـق على طلبهـم، وذلـك أن قبائـل العـرب عـامـة لاتعـرف الحكـم الذي يقوم على الملـك كمـا هو الحال في دولـة الفـرس والـروم، وإنما كـانوا يسـودون رجـلاً منهم تجتـمـع لـه خـصـال الشـرف التي اتفـقـوا عليهـا، وقـد يسودون أكثر من واحـد كما هو الحال فـي مـجـتـمـع مكة آنذاك.

وقـد عـرضـوا على رسـول الله ﷺ أن يجمعـوا له السيـادة فيكون سيداً على جميع فروع القبيلة بدلاً من أن يكون لكل فرع منها سيد، وإذا كـان هذا لايقنعـه ولا يرضـي طـمـوحـه فـلا مـانـع لديـهـم من تمليكه عليهم بحيث يحكمهم كما يحكـم ملـوك الفرس والروم، وذلك أقوى في التمكين وأبلغ في الزعامة من مجرد السيادة.

هذا وإن استعداد زعماء قريش على تحمل هذا الأمر الذي يخالف ما تعارف عليه العرب آنذاك يدلنا على بعد الشقة بينهم وبين رسول الله ﷺ وأن انقيادهم إليه بشكل جماعي على أنه رسول من عند الله تعالى وتغيير دينهم أمر بعيد الاحتمال.

وقد سبق عرض تلك العروض على رسول الله ﷺ من عتبة بن ربيعة، وإن كان عتبة قد أضاف عرضاً جديداً على رسول الله ﷺ وهو أن يزوجوه عشر نسوة يختارهن من قريش، وهذا العرض في الحقيقة داخل في عرض تمليك المال حتى يكون أغنى رجل في قومه لأن صاحب الغنى يستطيع أن يحصل على ما يريد من الشهوات.

هذا وإن في إعادة عرض هذه المغريات من زعماء قريش دليلاً على أنهم لم يفهموا بعدُ حقيقة دعوة رسول الله ﷺ التي تقوم أساساً على الزهد في الدنيا والعمل للآخرة، فإذا كان باستطاعة أولئك القوم أن يَعدوا المسلمين بالحياة السعيدة في الآخرة القائمة على الظفر بالجنة والنجاة من النار فإنهم يستطيعون التأثير عليهم!.

ولكن أنَّى ذلك للمسلمين أنفسهم، بل أنى ذلك للأنبياء عليهم السلام! لأن الذي يملك ذلك الفضل الكبير هو الله تعالى وحده، وإنما مهمة الأنبياء عليهم السلام ومن اقتدى بهم من الدعاة هي أن يهدوا الناس إلى الطريق الموصل إلى هذه السعادة.

وهكذا يحاول عبثاً دعاة الباطل على مر الزمان، حيث يكررون عروضهم المغرية على الدعاة الصادقين في دعوتهم، فيخسروا بذلك وقتهم وجهدهم.

وقد يُطمعهم في الاستمرار على هذا المنهج ما يرونه من سقوط بعض الدعاة في أثناء المعركة الدائرة بينهم وبين أعداء الإسلام، حيث ينجح الأعداء في تحجيم هؤلاء الدعاة وتجميد نشاطهم، أو تحويل هذا النشاط إلى عمل مضاد لاتجاه الدعوة الإسلامية.

ومما يلاحظ هنا أن رسول الله ﷺ رفض أن يكون ملكاً على أهل مكة، وقد يتعلق بذلك من يرى عدم ضرورة قيام الدولة الإسلامية، خصوصاً مع ملاحظة أن النبي ﷺ لو تولى زعامة قريش وحلفائها لكان أعظم قدرة على بث دعوته لأنه والحال هذه يستطيع أن يفرضها من خلال سلطته وهيمنته على البلاد.

والجواب على ذلك أن زعماء قريش لم يتنازلوا لرسول الله ﷺ عن زعامتهم حقاً، وإنما أرادوا منه أن يتنازل عن دعوته إلى التوحيد في مقابل زعامة وهمية يخضعونه بها لمبادئهم الجاهلية بينما هم لايخضعون لدعوته، والحقيقة أن الذي يحكم هي المبادئ، والرجال من وراء تلك المبادئ منفذون، فإذا بقيت مبادئهم الجاهلية - وهو المطلب الذي أصروا عليه - فهي التي تحكم، وأي زعيم ينصب في ظلال تلك المبادئ فإنه يكون خاضعاً لها، وهذا يعني أن يتنازل رسول الله ﷺ عن دعوة التوحيد في مقابل قبوله هذا العرض السخي في نظر أهل الدنيا، ولذلك كانت استجابة النبي ﷺ لهم أمراً مستحيلاً.

لقد كانت تصريحات زعماء المشركين تبين استحالة أن يسندوا زعامتهم لرسول الله ﷺ مع بقائه على كامل دعوته، ومن ذلك ما سبق

في خبر أبي جهل من قوله : «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرَسَي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه ؟».

فهذا دليل على أن المطلب الكبير الذي يتنافسون عليه هو السيادة على مكة، ولكنهم مع هذا أبدوا استعدادهم للتنازل عنها لرسول الله ﷺ لو تخلى عن دعوته أو بعض ما يدعو إليه، أما في حال إصراره على دعوته إلى التوحيد فإن تنازلهم له عن ذلك يكون أمراً مستحيلاً.

أما قيام الدولة الإسلامية فإنه أمر ضروري لقيام الدين عند القدرة على ذلك، ولهذا أقام النبي ﷺ دولة الإسلام في المدينة يوم أن هاجر إليها وأصبح قادراً على ذلك، وكونه رفض السلطة الوهمية التي عرضها عليه زعماء مكة لايعني عدم اهتمامه بإقامة دولة الإسلام، وإنما كان هذا السلوك منه تسديداً من الله تعالى له، وفهماً ثاقباً منه لمقاصد الكفار الماكرة التي أرادوا بها أن يقضوا على دعوته.

ثم إنهم بعد هذه العروض الثلاثة عرضوا عليه أن يبذلوا المال في طلب الطب له إن كان الذي حمله على مخالفة قومه والإصرار على ذلك تأثر ضاغط بسبب هيمنة الجن عليه.

وكأنهم يقولون له إن لم تكن أهدافك من هذه المخالفة أن تصبح أغنى رجل في قومك، أو أن تكون لك السيادة المنفردة عليهم جميعاً فإنه لايتصور أن يدفعك إلى دعوتك تلك إلا الانقياد القسري لأصحاب

الهيمنة من الجن، ومن هذا المنطلق اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون كما سبق.

هذا وبالرغم من كون تلك العروض الثلاثة مغرية جداً خاصة العرض الثالث الذي سيجعل رسول الله ﷺ الملك الوحيد في بلاد العرب.

وبالرغم من كون المقابل لذلك فيما إذا رفض تلك العروض أن يكون متهماً بين قومه بالجنون فإن النبي ﷺ قد رفض بكل إباء وعزة جميع تلك العروض المغرية وأصر على لزوم دعوته التي اجتمع أولئك الزعماء من أجل القضاء عليها.

لقد كان جواب رسول الله ﷺ جواب المستسلم لأمر الله تعالى الثابت على مبدئه السامي حيث قال لهم: «ما بي ما تقولون وما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلَّغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

وهذا الكلام يعتبر نهاية الاستسلام لله عز وجل وغاية التوحيد، حيث أشعرهم بأنهم إن أظهروا شيئاً من التحدي والتعجيز فإنما يواجهون الله تعالى بذلك، فالحرب حقيقةً قائمة بينهم وبين الله تعالى، ولن يفلح من جعل نفسه في مواجهة مع الله جل وعلا، فالأمر لله تعالى وحده من

قبل ومن بعد، وإنما الرسول ﷺ مبلّغ عن الله تعالى ومنفذ لشريعته على الوجه الأكمل، فليس طالب دنيا ولا طالب جاه، ولايملك أن يتنازل عن دعوته ولابمعشار ما طلبوا منه ولابما هو أقلّ من ذلك، لأنه ليس مستقلاً بهذا الأمر حتى يفاوض عليه حسب ما يمليه عليه اجتهاده المصلحي، وإنما هو رسول مبلغ عن الله تعالى منفذ لشريعته.

وفي هذا درس بليغ لأهل العلم الديني الذين يواجَهُون بشيء من التحدي والعداء من الكفار والمنافقين، والذين يضع المسلمون ثقتهم بهم في فهم هذا الدين وتبليغه، ليكون شعورهم وتفكيرهم حاضراً مع الله تعالى حينما يُسألون ويجادلون، وليكون فهمهم مقصوراً على كونهم مبلغين عن رسول الله ﷺ ومشرفين على تنفيذ شريعة الله تعالى كما شرع، وأن لايداخلهم شيء من حب الظهور والتفوق الفكري غير المنضبط بشريعة الله جل وعلا.

فإذا كانوا مع الله تعالى وتصوروا أن الله معهم في معركتهم مع الأعداء، وأنه مطلع على مكنونات ضمائرهم فإن ذلك يعصمهم بإذن الله تعالى من الزلل، ويمنحهم دُفُعات من القوة والصمود في وجه الأعداء.

لقد كان رسول الله ﷺ وهو يحاور الأعداء موصولاً حبله بالله عز وجل، ولم يكن في قلبه شعور بأي قوة في الأرض، وكان يستلهم من الله تعالى الثبات والقوة بقدر ما كان يتلقى الوحي الإلهي الذي يحاور المخالفين على قبسات أنواره.

وإذا كان النبي ﷺ قد اختُصَّ بالوحي كسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن ممثلي العلم الديني لم يَعْدموا هذا النور الذي سار على ضوئه الساطع ورثة النبي ﷺ على مر العصور، بل هو بين أيديهم قد اكتمل قبل لَحَاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى كما في قوله تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا** ﴾[1].

فما عليهم إلا أن يلتزموا بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، بعد أن يوثقوا صلتهم بالله عز وجل، وأن يَشْعُروا بحضوره معهم بعلمه في كل ندواتهم وجلساتهم، بل في كل همساتهم وخطرات قلوبهم.

هذا وإن في رفض النبي ﷺ من الكفار عروضهم المغريةَ من الملك والمال ردًا بليغا على أعداء الإسلام الذين فسروا الدعوة الإسلامية بأنها ثورة من الفقراء على الأغنياء الكبراء فلو كانت كما زعموا لكان في تحقق هذه العروض المغرية الوصولُ الكامل للمقاصد والأهداف التي دفعت إلى تلك الثورة.

ولو كانت كما زعموا لما رأينا في تلك الفئة المسلمة أغنياء في غاية الغنى والترف كعثمان بن عفان ومصعب بن عمير، ومن هم دونهم في الغنى ولكنهم يفوقونهم في الشهرة والمكانة كأبي بكر وعمر، إذ أن المنطق الصحيح - لو كان الأمر كما زعموا - أن يكون هؤلاء في صف أهل الغنى والزعامة القبلية.

---

(١) سورة المائدة: آية (٣).

ولقد بَيَّنَتْ أحداث الهجرة بعد ذلك الهدف السامي الذي ضحى من أجله المسلمون حيث تركوا أموالهم بمكة وهاجروا إلى المدينة ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة رضي الله عنهم أجمعين.

هذا ولقد بدأ الكفار مع رسول الله ﷺ بفتنة الأذى والتخويف كما سبق، فلم يثنه ذلك عن عزيمته، وظل صامداً في دعوته، فلما لم يُجْد معه هذا النوع من الفتنة تحولوا إلى فتنة التأليف، فعرضوا عليه هذه العروض الكبيرة.

وهكذا الكفار في كل زمن يحاولون فتنة دعاة الإسلام بهذين النوعين ليتحولوا عن دعوتهم، أو ليقْبَلوا المداهنة، وذلك بالتنازل عن بعض ما يدعون إليه حسب ما يريده الأعداء.

وإن للدعاة إلى الله تعالى لأسوة حسنة برسول الله ﷺ حيث لم يخضع لفتنة الكفار، سواء في مجال التأليف أو في مجال التخويف.

وهل عُرض على داعية أن يكون ملكاً على قومه كما عرض على رسول الله ﷺ ؟!.

لقد عُرض على بعض الدعاة لعاعةٌ من الدنيا فسارعوا إليها وتخلوا عن دعوتهم، أما رسول الله ﷺ فقد ظل ثابتاً على طريقه المستقيم ولم تخطر له الدنيا ببال.

ونجد في نهاية هذا الخبر أن المشركين لما يئسوا من استمالة رسول الله ﷺ إلى صفهم والتأثير عليه ليترك دعوته أو ليخفف منها لجئوا إلى

أسلوب التعجيز في المطالب ليحاولوا إفحامه وإظهاره بمظهر العاجز عن تحقيق مطالبهم، وهذا في نظرهم يتعارض مع كونه رسولاً من عند الله جل وعلا، فطلبوا منه أن يسأل ربه أن يزيح عنهم جبال مكة التي ضيقت بلادهم، وأن يفجر لهم أنهاراً كأنهار الشام والعراق وأن يبعث لهم آباءهم ليسألوهم عن دعوة الإسلام هل هي حق أم باطل ؟ وأن يبعث مع الرسول ﷺ مَلَكاً يصدقه فيما يقول، وأن يسأل ربه أن يجعل له جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة حتى يكون من أغنى الأغنياء.

وقد أجابهم النبي ﷺ في كل ما سألوا ببيان مهمته الكبرى وهي تبليغ رسالة الله تعالى وبيان ما ينتظرهم من سعادة في الدنيا والآخرة إن آمنوا، وإن ردوا دعوته فما عليه إلا الصبر، والأمر بيد الله تعالى يحكم بينه وبينهم.

كما بين أن تحقيق المطالب المذكورة ليس مما بُعث به وإنما بعث لإخراجهم من الظلمات إلى النور لو كانوا يعقلون.

ونجد في هذا الخبر مثلاً من لجوء الكفار إلى التعنت في المطالب التي لايقصدونها لذاتها، وإنما هي لتعجيز النبي ﷺ، ومحاولة صرف الناس عنه فيما إذا لم يحقق لهم هذه المطالب.

وهذه المطالب التي تشبه الخيال تحكي واقعاً فكرياً مضطرباً يعيش فيه أولئك الكفار، حيث قد أفلس رصيدهم الفكري من الحجة والبرهان، ورأوا إقبال قومهم على اعتناق الإسلام على مختلف طبقاتهم، فصاروا يتخبطون في متاهات من الفكر لايقبلها العقل السليم.

وقد نزل في الجواب على مطالب هؤلاء وأمثالها الآيات التالية من سورة الإسراء، قال تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴾[1].

وقال تعالى ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾[2].

وهكذا كان توجيه الله تعالى نبيه ﷺ إلى الجواب بهذه الجملة الموجزة البليغة ﴿سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ ، وقد تضمنت التعجب الإنكاري من مطالبهم المتعنتة القائمة على حب المغالبة وكسب القضية لصالحهم ولو خرجوا من منطق العقل السليم.

كما تضمنت بيان طبيعة النبي ﷺ التكوينية، فهو بشر، وليس من طبيعة البشر أن يتمكنوا ذاتياً من تحقيق هذه المطالب.

كما تضمنت بيان مهمة الرسول ﷺ في هذه الحياة، وهي أنه رسول من عند الله تعالى، يبلغ رسالته، ويقيم الحجة على الناس بذلك، وينفذ

---

(١) الإسراء: (٥٩).

(٢) الإسراء: (٩٠- ٩٣).

شريعة الله جل وعلا ، فإذا فعل ذلك فقد أدى مهمته بنجاح ، وليس للمخالف أن يطالبه بما هو فوق مقدرته كبشر ، ولا بأن يتجاوز ما حدد الله تعالى له كرسول .

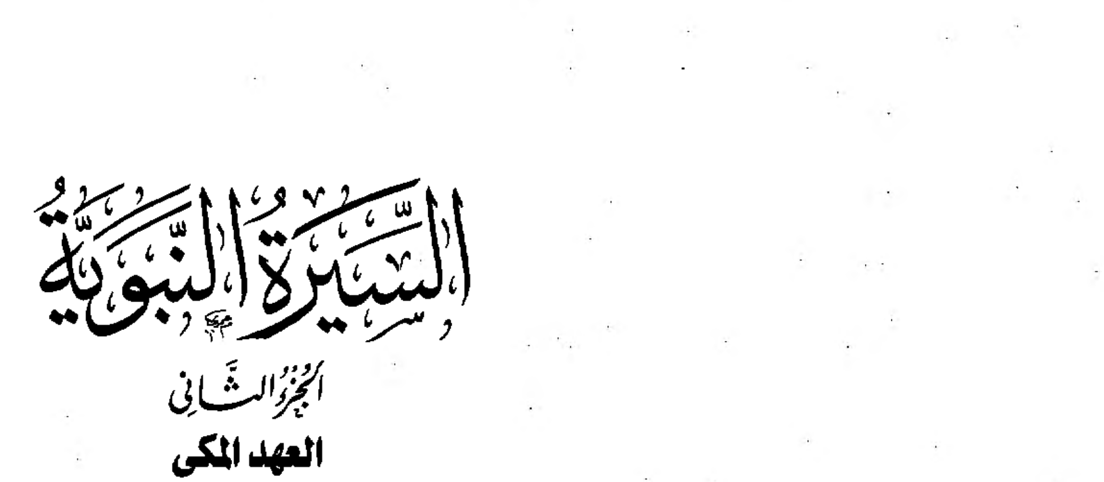
ولقد تبين كذبهم في ادعاء قبول الإسلام لو تحققت لهم هذه المطالب في نفس ذلك المجلس الذي طلبوها فيه حيث قال أحدهم وهو عبدالله ابن أمية لرسول الله ﷺ - بالرغم من كونه ابن عمته - : وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدقك .

وهذه المقالة تعتبر مثلاً من واقع المشركين الذي بينه الله تعالى بقوله : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾[1] .



(١) سورة الحجر : (١٤-١٥) .

الفهرس


السيرة النبوية ﷺ
الجزء الثاني
العهد المكى

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢

الترقيم الدولى

977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شــارع منشــا - محــرم بك - الإســكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضــراء للنشر والتوزيــع

حى السلامة - شارع عبد الرحمن السديرى - مركز الزومان التجارى

ص. ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

المملكة العربية السعودية